مصطفى محمود

في الحُبّ والحياة

الطبعة السادسة

دار المعارف

أسرار الشعور

أنت لا تحس بالفانلة على جسمك إلا فى اللحظة التى تلبسها.. وفى اللحظة التى تخلعها.. أما فى الساعات الطويلة بين اللحظتين.. وهى على جسمك فأنت لا تحس بها..

إنها على جسمك.. تلامس جلدك وتلتف حول صدرك وظهرك وذراعيك ولكنك لا تحس بها ولا تشعر بوجودها.

والمرأة بالمثل تحس بها وأنت تشرع فى الزواج منها فى فترة التعارف والخطوبة وكتب الكتاب وشهر العسل.. فإذا لبستها تماما كالفانلة وأحاطت بصدرك وظهرك وذراعيك فقدت الشعور بوجودها.. وأصبحت مثل قطعة أثاث فى البيت تدخل كل يوم لتجدها فى مكانها.. مثل المنظر الذى تطل عليه من نافذتك يثيرك للمرة الأولى ثم يصبح عاديا ثم تنساه تماما...

وتظل المرأة منسية كالفانلة.. حتى تأتى اللحظة التى يدب فيها الخلاف بينك وبينها ويتأرجح الزواج على هاوية الطلاق وتبدأ فى خلعها كما تخلع فانلتك.. وفى تلك اللحظة تعود للشعور بها بعنف ويرتجف قلبك من خشية فراقها.

إن الزواج الذى يسمونه الزواج السعيد.. الزواج الذى يدوم فيه الوداد وتنتظم فيه العلاقة بين الزوجين فى سياق رتيب هادئ .. يفتر فيه شعور كل واحد بالآخر وينطفئ الوهج من قلب الاثنين..

ما السر؟..

السر فى كيمياء الأعصاب..

إن أعصابنا مصنوعة بطريقة خاصة.. تحس بلحظات الانتقال ولا تحس بالاستمرار..

حينما تفتح الشباك فجأة تسمع دوشة الشارع تملأ أذنيك.. ثم تخف الدوشة شيئا فشيئا حينما يستمر ضخبها فى أذنك..

وحينما تركب الأسانسير تشعر به فى لحظة تحركه.. وفى لحظة توقفه.. أما فى الدقيقة الطويلة بين اللحظتين فأنت لا تشعر به لأن حركته تكون مستمرة...

وحينما تنظر للشمس لأول مرة تغشى عينيك ولكنك حينما تتعود عليها تبحلق فيها دون أن تتأثر..

وحينما تعيش متمتعا بصحة مستمرة لا تحس بهذه الصحة.. ولا تتذكرها إلا حينما تمرض.

وحينما تدخل السجن تفقد وزنك فى الشهور الأولى، لأنك تحس بالفارق بين هواء الحرية وهواء الزنزانة.. ثم تتعود على الزنزانة فتفقد إحساسك بضيقها.. وتبدأ تأكل بشهية وتسمن..

إن الدوام قاتل الشعور.. لأن أعصابنا عاجزة بطبيعتها عن الاحساس بالمنبهات التى تدوم..

نحن مصنعون من الفناء.. ولا ندرك الأشياء إلا فى لحظة فنائها..

نشعر بثروتنا حينما تفر من يدنا..

ونشعر بصحتنا حينما نخسرها..

ونشعر بحبنا حينما نفقده..

فإذا دام شىء فى يدنا فإننا نفقد الاحساس به..

* * *

كيف تحافظ الزوجة على زوجها وتجعل حبه يدوم؟..

لا توجد إلا وسيلة واحدة.. أن تتغير .. وتتحول كل يوم إلى امرأة جديدة.. ولا تعطى نفسها لزوجها للنهاية، تهرب من يده فى اللحظة التى يظن أنه استحوذ عليها، وتنام كالكتكوت فى

حضنه فى اللحظة التى يظن أنه فقدها.. وتفاجئه بـألوان من العاطفة والاقبال والادبار لا يتوقعها.. وتحيط نفسها بجو متغير.. وتبدل ديكور البيت وتفصيله.. وألوان الطعام وتقديمها.

على الزوجة أن تكون غانية لتحتفظ بقلب زوجها شابا مشتعلا..

وعلى الزوج أن يكون فنانا ليحتفظ بحب زوجته ملتهبا متجددا..

عليه أن يكون جديدا فى لبسه وفى كلامه وفى غزله.. وأن يغير النكتة التى يقولها آخر الليل.. والطريقة التى يقضى بها إجازة الأسبوع.. ويحتفظ بمفاجأة غير متوقعة ليفاجئ بها زوجته كل لحظة..

* * *

وزمان كانت الزوجة تتطوع بالرضا بالزوج على أنه قسمة ونصيب وتحبه كما تحب أمر الله.. وكان الزوج يتزوج ليعيش.. وكان الزواج ينجح لأنه مدعم بإرادة إلهية أقوى من الحب وأقوى من السعادة وأقوى من كل شيء.. كانت الزوجة تحب زوجها طيبا وتحبه مجرما.. وتحبه مريضا.. وتحبه صحيحا..

وكان حبها فى الحقيقة تدينا وعقيدة أكثر منه حبا..

أما الآن فالزوجة تقرأ الصحف وتدخل السينما وتسمع

الاذاعة وتطلب من زوجها غراميات متواصلة من نوع غـراميات روك هدسون..

ولينجح الزواج لابد أن يكون الـزوج بهلـوانا.. والـزوجة بهلوانة.. ليضع الاثنان الشطة فى فطيرة الحب كل يوم..

وبالطبع الزواج الآن ألذ من زمان.. ولـكنه متعـب ويغـور بمشاكله..

وأنا أفضل زواجا أستريح فيه على زواج اتشقلب فيه كل يوم لأحرك أعصاب زوجتى وأحافظ على حبها.. وأجـدد شـهيتها نحوى..

أفضل أن تحبنى زوجتى فى تدين.. فأكون ربها ورجلها وبيتها وحياتها.. ويدوم حبنا لأنه عقيدة وإيمان قبل أن يكون حبا..

لكن فين أيام زمان.. هذه أحلام..

ليس أمامنا الآن فى هذا الجيل من البنات العفاريت.. غيـر ألاعيب روك هدسون..

ليس أمامنا غير زغزغة أعصاب زوجاتنا وتقديم المشـهيات العاطفية من كل لون.. لنحتفظ بهن.. وليحتفظن بنا..

ديكولتيه

المرأة فى الغالب عملية جدا.. واقعية جدا عاطفية حسية.. نظرتها قريبة.. لا تذهب فى العادة لأبعد من زينتها.. فستانها.. مطبخها.. بيتها.. رجلها.. أولادها.. عائلتها.. جيرتها على الأكثر.. اهتماماتها فى العادة لا تتجاوز هذا النطاق العملى.. وهى تترك للرجل أن ينظر لأبعد من هذا.. فيهتم بوطنه وبلده وبالعالم.. ويكافح على مستويات أكثر عمومية.. فيكافح من أجل الحرية والعدالة والفكر والفن.. بينما تكتفى هى بالوقوف بعيدا لتبتسم وتصفق وتشجع.. ولكنها لا تفكر فى أن تشارك جديا فى هذه الأهداف المجردة..

هذا حال الأغلبية من النساء.. والاستثناءات القليلة للنساء اللاتى كان لهن دور فى الفكر والفن والسياسة، كانت طرائف

ونوادر تروى كما تروى قصص البطولة.. وهى تؤكد القاعدة ولا تنفيها..

المرأة عملية.. ولاتحفل كثيرا بالقضايا المجردة..

الانسانية.. والعالم.. والفكر.. والعدالة.. كلمات مجردة بالنسبة للمرأة.. وهى تفكر فيها فقط على المستوى العملى، وفى نطاق محدود.. هو أولادها وبيتها..

إن بيتها هو العالم.. وأولادها هم الانسانية.. وحينما يخرج رجل مثل سقراط على تقاليد بلده ويخرب بيته فى سبيل أفكاره الانسانية،فإن زوجته تلطم على خديها ولا تفهم كيف يفعل رجلها المجنون هذه المصيبة.

وبالمثل حينما يوزع تولوستوى أرضه على الفلاحين، لأنه لا يطيق مناظر الظلم والاستعباد والاقطاع.. فإن زوجته تشق ثوبها على جنونه..

وحينما يعلن جاليليو نظرياته فى الفلك ويعتقل ويعذب فى محاكم التفتيش فإن زوجته لاتفهم شيئا فى نهضة الفلك هذه.. إن كل ما يهمها أن الأولاد سوف يشردون.. إن العلم كلمة مجردة بالنسبة لها.. إن كل ما يهمها هو قوت العيال والأمان المادى للبيت والأسرة..

وهذا يعنى أن الخيال والتفكير النظرى هما لعبة الرجل

وليسا لعبة المرأة.. المرأة ليست خيالية.. المرأة عملية واقعية تفكر على أساس، وبناء على موضوعات قريبة منها وفى مجال حواسها..

وعلى هذا الأساس تفكر بيوت الأزياء حينما تحاول اجتذاب المرأة بمبتكراتها وموضاتها.. إنها تجسم الأنوثة بأسلوب واقعى وبتفصيلات حسية عملية.. إنها تقدم الأنوثة على أنها.. عريان وديكولتيه وجابونيز ومحزق وسوتيان بحلمة وكورسيه.. تقدم الأنوثة على أنها أعضاء.. وهى بهذا تعكس التفكير الحسى الواقعى كما هو فى العقلية النسائية..

ولكنى.. أنا الرجل.. لى تفكير آخر.. الأنوثة عندى خصائص مجردة معنوية روحانية.. إنها فى الصوت والنبرة والرائحة والحركة.. وفى نظرة العين الفاترة الدافئة العطوفة الحنونة.. وفى اللفتة الفياضة بالرأفة والأمومة.

ومعنى هذا أن هناك نوعا من عدم الوفاق حاليا بين تفكير المرأة وتفكير الرجل.. هناك اختلافات جوهرية فى أسلوب الحياة وأسلوب الفهم بين الاثنين..

المرأة تريد خدمات ملموسة ومسرات واقعية قريبة فى مجال زينتها ولبسها ومصروفها وأكلها وشربها وبيتها.. والرجل لا يهتم كثيرًا بهذه المطالب الملموسة القريبة، وهو أحيانا يضحى بها فى

سبيل أهداف بعيدة مجردة غير ملموسة مثل الفن والفكر الحرية والوطنية.. والمرأة فى الغالب لا تفهم هذه التضحية .. إنها تريد عيشة لوكس وفخفخة.. وفكر إيه ياعم وأنا مالى ومال الفكر.. خليك اشبع بالفكر بتاعك.. لكن أنا عاوزة أعيش..

وبالطبع هناك أقلية من النساء تفهم وتقدر وتشجع، وتحب بالقلب وبالروح.. وتعرف ما هو هذا القلق الذى يشعر به الرجل على المعنويات والقيم المجردة..

والفنان يكون محظوظا إذا عثر على واحدة من هذه القلة الحساسة والتواقة بروحها إلى الجمال والكمال والقيم المعنوية.

ولكن الأغلبية من الجنس اللطيف تنفعل أكثر بالذهب والألماظ وتبرق عيونها مثل عيون القطط فى الليل أمام واجهات العربات وتوكيلات كاديلاك ومرسيدس.. وفاترينات الجواهرجية..

وأنا لاأقول هذا لأهاجم المرأة أو أعيبها.. فليس هذا التفكير طبيعة فيها.. وليس غريزة.. وليس صفة أصيلة من صفاتها.. وإنما هو صفة مكتسبة لا ذنب لها فى اكتسابها.. الذنب ذنبنا نحن..

لقد اكتسبت المرأة هذه الصفة نتيجة تخصصها فى مجال البيت وعزلتها بين جدرانه وانفصالها عن المشاركة العامة فى المجتمع أجيالا طويلة متعاقبة بناء على طلبنا وبناء على تسلطنا

وتحكمنا وأوامرنا بأن تكون الست للمطبخ والـرجل للمجتمـع والفن..

وكانت نتيجة توزيع الاختصاصات بهذه الطريقة.. هذه الثغرة بين تفكير النساء والرجال والخلاف بين الاثنين على أهـداف لا يلتقون فيها أو يكون اللقاء فيها بالضرب وبالعافية..

والحل فى نظرى ليس المقالات وحدها.. وإنما الحل الحقيقى هو الزمن..

إن نزول المرأة إلى ميدان العمل واصـطدامها بـالمسئولية الاجتماعية وتسلمها مقاليد حريتها سوف يؤدى فى البداية إلـى موجة انحلال نتيجة انبهار المرأة بحريتها الجديدة، وانـدفاعها فى تجربة هذه الحرية للحصول على لذات سريعة، ملموسة مـن كل نوع.. وهو انحلال سوف ينتهى بأن تعود مـن مغـامراتها مجرحة مهانة مبتذلة ضائعة خائبة.. وتكون نتيجة هذا الانحلال أن تثوب إلى نفسها.. وتفتقد القيم والمعنويات وتبحث عنهـا.. وتقلق عليها.. وتفكر فيها وتهتم بها .. وتسعى إليها كما يسعى الرجل.. وبذلك يلتقى الاثنان فى التفكير وفى الحياة وفى الحـب، وقد اكتشفا معا أن الأهداف المجردة والمعانى يمكن أن تكون ملموسة ومقنعة ومرغوبة أكثر من الأكل والشرب واللبس..

ومثل هذا التطور سوف يحتاج إلى مائة سنة.. نشربها نحن فى الوحدة والانتظار.. ويشربنها هن فى الضياع..

وقلة من النساء الذكيات بالطبع سوف تكون عندهن الفطنة التى يكتشفن بها هذه الحقيقة ويتطورن من تلقاء انفسهن ويوفرن على انفسهن المائة سنة.. لأنهن يمتلكن أرواحا حساسة قادرة..

وهؤلاء النساء الذكيات النموذجيات سوف يعرفن كيف يقصصن عقولهن على الموضة وكيف يقصصن أرواحهن على الباترون ١٩٨٠ لآخر مبتكرات الفكر والفن والحب والجمال.. وكيف تكون الواحدة منهن حلوة فى تقاطيعها.. حلوة فى لبسها.. حلوة فى سجاياها.. كيف تقص فستانها ديكولتيه.. وعقلها ديكولتيه.. كيف تكون مشتهاة وبعيدة المنال.. وكيف تكون ذات كبرياء وبسيطة.. وكيف تكون عاقلة وطفلة، وكيف تكون لطيفةومهابة .. وكيف تكون ست بيت وقارئة ذواقة.. وكيف تكون صديقة وعاشقة..

لتحاول كل واحدة منكن أن تكون هذه المرأة الذكية النموذجية التى تفهم سير الدنيا وتوفر على نفسها مائة سنة من التطور.. وتجسد لى أحلامى لعام١٩٨٠..

أكرهك.. أحبك!

حينما تقول البنت لصاحبها.. أكرهك جدا.. لا أطيق رؤيتك.. أود أن أطلق عليك الرصاص.. لقاء الموت أهون من لقائك..

حينما تمزق شعرها من البغض.. وتنشب أظافرها فى الهـواء من الغيظ..تكون فى حالة حب وليست فى حالة كراهية..

لا فرق بين الحب والكراهية.. كلاهما نار.. كلاهما اهتمـام شديد .. وارتباط حار بين قلبين..

ولولا الاهتمام.. لما كان الدم يفور هـكذا، ولا الأعصـاب تتمزق.

والكراهية تكلف أكثر من الحب.. لأنها إحساس غير طبيعى.. إحساس عكسى مثل حركة الأجسام ضد جاذبية الأرض.. تحتاج

إلى قوة إضافية وتستهلك وقودا أكثر..

الكراهية نمو إلى تحت.. وليست نموا إلى فوق.. إنها نمو يتغذى على نفسه ويأكل بعضه.. والحب الذى ينقلب بسرعة من غرام ملتهب إلى كراهية ملتهبة.. هو الحب الشهوانى الأنانى الصغير الضيق الأفق الذى لا يحالفه الفهم والعقل.

إن انتقاله فجأة إلى البغض لا يدل على انفتاح العقل على فهم عميق، ولا يدل على انفتاح النفس على تسامح كريم.. ولا يكشف عن إحساسات روحية رحيبة.. وإنما هو يكشف عن شح وبخل شديدين.. ويدل على انحصار النفس فى رغبة واحدة أنانية أو لذة محدودة.. ما تلبث أن تقلب الحب حقدا.. حينما تبوء بالخذلان.. فتسحب البنت قبلاتها وتستبدلها بصفعة عاجلة..

إنها لم تكن تحب رجلها فى الحقيقة.. وإنما كانت تحب نفسها.. وتحب غرورها وكرامتها وراحتها ولذتها.. وكانت تحب فيه أنه يقضى لها هذه الحاجات.. ثم أصبحت تكره فيه أنه يخذلها..

نار الحب.. ونار الكراهية.. كانت نارا واحدة.. هى غرامها بنفسها.. وتلذذها بما يرضيها.. ورفضها لما يجرحها ويؤذيها.. الكراهية.. والغيرة.. والانتقام.. عواطف شريرة تنبع من

الأنانية.. ومن نفس مغلقة شديدة الحرص على صالحها.. شديدة البخل بحبها.. شديدة الندم على أن يفوتها شيء.. قليلة الصبر على خذلانها.

والكراهية لا تدوم طويلا..

إنها تحرق نفسها مع الزمن من فرط العذاب.. ومن فرط القلق.. ومن فرط الهم.. ثم تنفتح فى النهاية على فهم أرحب للدنيا.. وعلى إدراك حنون لطبيعة الناس وطبيعة الأشياء.

* * *

ثم يأتى بعد ذلك الحب الثانى.. وهو يكون فى العادة حبا أعمق وأبقى وأرقى فى ملذاته.. وأحلى فى ذكرياته..

والحب الثالث أعمق من الحب الثانى..

وآخر حب هوأعمق حب لأن البنت تحب رجلها بكل خبراتها. وبكل تطورها. وتاريخها.. وتبادله مسرات كثيرة لا حد لها..

وليس صحيحا أن أول حب هو أعظم حب.. والصحيح أن أول حب .. هو أصغر حب..

وأكبر غلطة يرتكبها الرجل أن يتزوج أول حبه..

أشتهيك...

كل حياة حسية تحمل فى طياتها بذور اليأس..

واللذات الجنسية تموت.. كما تموت بعض الحشرات ساعة التلقيح.. وتحمل بذور فنائها فيها..

والشعور المتكرر بعد كل لذة هو العطش.. وعدم الاكتفاء.. ثم العطش ثانية.. ثم العطش.. ثم التعب.. ثم اليأس من الشبع ومن الراحة ثم الملل..

وحينما يقول الرجل للمرأة.. أشتهيك.. فإن غريزته هى التى تتكلم..

وتستجيب الأنوثة لأى رجولة.. وتقول لها. أشتهيك.. ولا نهاية.. لأن العطش هو عطش الطبيعة.. الطبيعة هى التى تعلن حضورها.. أما الانسان فيكون غائبا..

إنه يظل ساكنا حتى تنطفئ النزوة.. فيعلن تعبه.. ومللـه.. ويأسه.. ويقول إنه لا يفهم شيئا من كل هذا..

أحبك...

أحبك.. هى الكلمة الجميلة الوحيدة التـى يتحـرك فيهـا الانسان .. ويفضل فيها امرأة بالذات.. يطلبها بـالاسم.. ويعلن ارتياحه لوجوده معها..

إنها الكلمة الوحيدة التى تتضمن حريته واختياره ومـزاجه وشخصيته..

إنه يفتح بيته وقلبه ونفسه وروحه.. ويستقبل روحا أخـرى. ويستضيفها.. ويأتنس بها.. وينتعش بها كمـا ينتعش بـدخول الشمس إلى غرفته.. ويحضر معها بـوجوده كلـه.. بجسـمه.. وطبيعته... وعاطفته.. وعقله.. وثقافته.. ويستمتع معهـا بهـذا الحضور الكامل.. بلا كراهية.. بلا أنانية، بلا غيرة.

والرجل لا يستطيع أن يبلغ هذه الدرجة من الحب إلا بعـد الثلاثين..

الرجل فى حبه الأول يكون أفلاطونيا خجولا.. وفى حبه الثانى يكون شهوانيا جسورا.. وفى حبه الثالث يكون عـطوفا حنـونا.. وهو فى هذه المرحلة يكون أحسن حبيب وأحسن زوج..

أصادقك..

الصداقة بين الرجل والمرأة لم تكن موجودة زمان..

كانت خلوة المرأة بالرجل نادرة لدرجة أن الاثنين لم يكونا يفكران أن يضيعاها فى الثرثرة والكلام فى السياسة.. وكانا يفضلان إنفاقها فى القبلات..

ولكنها الآن موجودة.. لأن البنات أصبحن موجودات بكثرة حول الرجل فى المكاتب والمدارس..

ولهذا بدأ نوع جديد من العلاقة ينشأ بين الرجل والمرأة هو الصداقة.. التى لا تتعدى تبادل التحية والسؤال عن الصحة..

ولكنها ما زالت علاقة هزيلة.. ليست فيها جدية صداقة الرجل بالرجل.. ولا جدية غرام الرجل بالمرأة..

إننا نصادق النساء.. ولكننا لا نشعر أن هذه الصداقة ضرورية أبدا..

حرية الزوجات

أحلى أمل فى الدنيا هو الحرية..

الطفل يحلم بأنه يلعب فى حرية..

البنت تحلم بأنها تحب فى حرية..

الرجل يحلم بأنه يعمل فى حرية..

ومع هذا فالحرية وحدها لا تسعد الانسان أبـدا.. الحـرية والفراغ والشباب والامكانيات إذا توفرت لانسان ولم يكن معها هدف تنشغل بتحقيقه.. تتحول إلى محنـة وعـذاب وملل وتلف عصبى..

الحرية تطالب بدينها باستمرار.. تطالب بالمسئولية.. تـطالب بعبء تحمله.. وإن لم تجد عبئا تتحول هى نفسها إلــى عــبء لا يحتمل ولا يطاق..

الجندى البسيط إذا جاءته ليلة القدر.. وقالت له اذهب.. أنت مارشال.. أنت قائد حر التصرف فى الجيش كله.. من الآن أنت مطلق من كل قيد ومن كل أمر، من الآن كلمتك أنت هى الأمر.. لا أحد يقرر لك مصيرك، لا أحد له الحق فى أن يصدر إليك تعليمات.. أنت منذ اللحظة مصدر كل التعليمات.. ومقرر لكل المصائر..

لو حدث هذا للجندى البسيط.. فإنه سوف يصاب بالذهول.. ثم يصاب بالخوف.. ثم يرتعد من هول الموقف..

إن كل كلمة يقولها يمكن أن تقرر مصير الجيش كله.. ومن يدريه أنه لن يخطئ التقدير.. وأنه لن يودى بحياة مليون جندى مثله وهو يخطط المعركة ويصدر الأوامر..

إن جسامة المسئولية تشل عقله من الخوف.. وهو سوف يرفض هذه الحرية.. ويرفض هذه الهبة التى تمنحها له ليلة القدر.. ويقدم استقالته ويطالب بالعودة إلى منصبه الصغير كجندى بسيط يتلقى أمرا بالزحف فينفذه بلا تصرف وبلا تفكير ويتقدم تحت وابل النيران ليموت فى بساطة.. فهذا أهون ألف مرة من حرية تضعه فى مفترق الطرق.. ليقرر.. ويتحمل مسئولية جيش بأسره. ويواجه مشكلة الاختيار.. والتصرف.. والتردد.. والحيرة.. فى كل لحظة..

إن الحرية بالنسبة لهذا الجندى البسيط هى حالة من التوتر والانزعاج والقلق.. لا تحتمل.. لأنه ليس مسلحا بالأدوات التى تمكنه من الافادة من هذه الحرية.. ليست لديه القدرة على حمل المسئولية.. وليست لديه الكفاءة التى يوظف بها إمكانياته.. ولا الأهداف التى يخطط من أجلها.. ولا يعرف ماذا يريد.. ولا كيف يتصرف بحريته..

إن الحرية عنده بلبلة.. وضيق.. وخوف.. وعبء ثقيل يتمنى الخلاص منه..

وهذه مشكلة الحرية.. انها مادة ثمينة جدا ولكنها خطرة.. مثل مادة الراديوم أغلى من الذهب والبلاتين.. ولكنها خطرة مدمرة محرقة.. تشع إشعاعات قاتلة..

وهى تستطيع أن تشفى من السرطان..ولكنها يمكن أن تسبب السرطان.. إذا لم يعرف الطبيب كيف يستعملها..

الحرية بدون أهداف وبدون برنامج وبدون غاية تبذل من أجلها.. عبء ثقيل..

الزوجة التى يعفيها زوجها من العمل فى البيت ويجلب لها ثلاثة من الخدم وغسالة بالكهرباء وكناسة بالكهرباء.. وسخان بالبوتاجاز.. ثم يعطيها الحرية فى الخروج والعودة على كيفها.. ثم يعفيها من الحمل حتى لاتشقى بتربية الأطفال .. سوف تقع

فى ورطة.. لأنها ستواجه ١٢ ساعة من الفراغ كل يوم.. لا تعرف كيف تقضيها.. ١٢ ساعة بدون أهداف بدون أطفال.. بدون واجبات فى البيت.. بدون خطة فى ذهنها لملء هذا الوقت..

مثل هذه الزوجة إما أن تصاب بالصرع.. وإما أن تدخل مستشفى الأمراض العقلية.. وإما أن تتصوف.. وإما أن تقود ثورة.. أو تؤلف حزبا نسائيا.. أوتتردد على بيوت مشبوهة.. أو تحترف حمل الأثقال.. أو تلعب المصارعة اليابانية.. أو تؤلف الشعر.. ولكنها لن تكون أبدا زوجة سعيدة.. ولن تكون زوجة بمفهوم الزوجات.. قناديل البيوت..

إن الرجل الذى يعمد إلى إراحة زوجته بإعفائها من العمل فى البيت يوقعها فى مشكلة أشق وأقسى من تعب البيت.. هى مشكلة حريتها التى سوف تلجأ إلى حلها بأسوأ الحلول..

وإذا كان لابد من إعفاء المرأة من واجبات البيت فعلى رجلها أن يجهز لها دورا آخر تملأ به نهارها ولياليها حتى لا تسود لياليه بحيرتها وقلقها ومللها.

وإذا أراد الزوج أن يمنح زوجته حرية.. فليمنحها عملا.. فليمنحها هدفا.. وليمنحها دورا تفنى فيه وتوظف فيه حريتها.. وإلا فإنها سوف تدمره وتدمر نفسها بهذه الحرية.. وسوف تتحول إلى إنسانة عاطلة ملولة مشاكسة تقضى نهارها فى نادى

الجزيرة تعرض فتنتها على أولاد الذوات العاطلين أمثالها.. وتقضى ليلها فى سهرات البوكر.. ثم تخنق أنفاسه آخر الليل بمطالبها..

إن الحرية ليست ترفا.. إنها ليست هدية يقدمها الزوج لزوجته مثل جورب النيلون أو زجاجة عطر الشانيل.. إنها لعنة حينما يقدمها ومعها شهادة بالاعفاء من العمل ومن المسئولية..

إنه يكون بذلك قد قدم مشكلة لزوجته.. ولم يقدم لها هدية..

وأفضل لها أن تعيش كالجندى البسيط يتلقى الأوامر وينفذها بلا تصرف.. على أن تكون مارشالا بدون عمل، وبدون برنامج..

والزوجة التى تبحث عن حرية.. ولا تبحث عن عمل لهذه الحرية.. لا تفهم معنى الحرية.. ولا تستحق أن نعطيها هذه الحرية أبدا..

وحرية الرجل الذى عاش محسودا عليها دائما من المرأة.. لم تكن أبدا حرية غير ذات موضوع.. وإنما كانت هبة يدفع فى مقابلها كل شىء.. كان هو دائما الذى يعمل.. هو الذى يكسب وهو الذى يزرع ويصنع، وهو الذى يفكر ويخترع ويقود ويسوس..

لم تكن حريته هدية.. لم تكن غسالة بالكهرباء توفر له

ذراعيه.. ولم تكن كناسة بالكهرباء توفر له المجهـود.. لينـام ويتمدد عاطلا فى نابى الجزيرة.. وإنما كانـت حـريته عمـلا وانشغالا ومسئولية.. وسهرا فى المصانع والمعـامل والمـدارس ودواوين الحكومة.. وكفاحا فى ميادين القتال..

وهذا هو المعنى الحقيقى للحرية..

وهذا هو العذر الوحيد للرجل فى حريته التى انفرد بها وامتاز بها على المرأة..

وإذا كانت الزوجات يـطالبن الآن بـالحرية.. فليس لهـن إلا هذه الحرية.. الحرية بمعنى العمل والمشاركة فى المسئـولية وحمل الأعباء..

أما حرية التسكع فى الشوارع.. والرقص والشرب والسـهر فى النوادى.

أما حرية كشف الساقين وتعرية الصـدر والـكتفين.. وحشر الجسم فى السيلوفان الشفاف.. لزغللة العيون.. وجر قطار مـن المعجبين، أما هذه الحرية فليس لها إلا معنـى واحـد.. هـو خراب البيوت..

وأول من ستشقى بهذه الحرية هى المرأة نفسـها.. إنهـا ستبكى من العذاب إذا كان لها عشيق واحد.. وسـتبكى مـن الملل إذا كان لها عشرة عشاق.. وستبكى من الهوان إن طلقها

زوجها. وستبكى من الندم إذا تشرد أولادها.. وستبكى من الوحدة حينما تبلغ سن الأربعين وتترهل.. وينفض من حولها العشاق.. وتفتقد دفء البيت .. وتفقد حنان الأولاد.

وستكتشف أن هذا البريق الذى كانت تجرى خلفه لم يكن الحرية.. وإنما كان عبودية غرائزها. وقيود أنانيتها.

* * *

إن الزوج الفطن هو الذى يشغل زوجته فى البيت دائما.. ويضع على كتفيها مسئولية البيت بلا خدم.. وبلا حشم..

إنه بهذا يدخر لها الهدف القريب الذى تنشغل به.. وتشغل به يديها وعقلها وقلبها.. وتوظف حريتها لخير البيت.. ولصالح الحب الوحيد الحقيقى الذى تعيش له.

نصيحة .. لكل امرأة

أيام زمان.. لم تكن المـــرأة فى حـاجة الـــى أى مجهــود لا جتذاب الرجل.. فهو دائما مجذوب من تلقاء نفسه.. يتلصص وراءها من ثقوب الأبواب.. ومن ثقوب البراقع.. ويقف ملـطوعا بالساعات فى الشارع على أمل أن يظهر ظلها من خلف شنيش النافذة.. أو تظهر يدها وهى تمتدإلى القلة أو أصيص الزهر..

كان مجذوبا.. لأنه لم يكن يعثر لها على أثر.. كان يعيش فى عالم كله من الرجال ويعمل فى عالم كله من الـرجال.. وكانـت المرأة شىء شحيح نادر لا يظهر فى الـطرقات.. ولا يــظهر فى المدارس.. ولا فى المكاتب.. وإنما يختبــئ فى البيــوت داخـل عباءات وملاءات وجلاليب طويلة .

ولم يكن هناك طريق للوصول اليها سوى أن يتزوجها علـــى

سنة الله ورسوله بدون بروفة وبدون معاينة وبدون كلام.

ولم تكن المرأة فى حاجة إلى ترويج بضاعتها لأنها كانت رائجة تتزاحم عليها المناكب.. ويأتيها طلاب القرب حتى الباب. ولهذا تعودت أن تكون سلبية وألا تتقن أى فن سوى التمنع والدلال ولا.. لا.. وياسم.. وهى طريقة سلبية كانت دائما توصلها إلى مرامها وتوقع لها برجلها كالذبابة فى شبكة العنكبوت.

ولكن الظروف الآن تغيرت تماما.

خرجت المرأة من البيت إلى الشارع .. والحقيقة أننا نحن الذين ضحكنا عليها وأخرجناها بحجة الحرية والتحرر والنهضة النسائية.. إلى آخر اللعبة التى لعبناها لتخرج من خدرها ونتمتع برؤيتها بكم قصير.. وصدر عريان.. وأخير بالمايوه.. كل هذا ببلاش .. بدون زواج..

ولم نكتف بهذا بل أزحنا عن كاهلنا نصف أعمالنا ووضعناها على أكتافها.. وتعالى جاء دورك ياشريكة العمر.

وصرخت شريكة العمر.. فقلنا.. عيب.. فين الكفاح.. أنت امرأة عظيمة مكافحة.. بطلة.. قديسة.. إنسانة حرة.. ولدت حرة.. وتعيشين حرة.. ولا نستطيع أن نحتكر شرف العمل والكفاح لنا وحدنا.. لقد جاء الوقت الذى تنتزعين فيه

رايةالحرية والكفاح والعمل من أيدينا برغم أنفنا..

والحقيقة أن الحكاية لم تحدث برغمأنفنا.. وإنما بتدبيرنا.. نحن الذين أدخلنا البنات المدارس.. وأعطيناهن أعمالا فى الوزارات والمستشفيات والمصانع والشركات والبنوك.. وفتحنا لهن الدكاكين والمتاجر.. لنريح أنفسنا ونخفف من أعبائنا.. ونتمتع فى نفس الوقت بزمالة المرأة مدة أطول..

ونتيجة هذا التطور كانت نتيجة خطرة..

لقد بدأنا نشبع من رؤية النساء بالروج والبودرة والشورت والمايوه..

شبعنا من رؤية الكوارع الضانى التى كان لعابنا يسيل عليها فيما مضى.. ويدفعنا جريا الى المأذون لنحظى بها. وبدأنا نستريح .. ونضع فى بطننا بطيخة صيفى..

ولم تحمل لنا الحياة الجديدة متعة الرؤية فقط. وإنما حملت لنا أيضا متعة أخرى هى.. الهزار.. والمزاح بحكم الزمالة فى العمل ورفع الكلفة.. والجرى واللعب.. وتناول الغداء معا والعشاء معا.. والذهاب إلى السينما والمشارب والمطاعم..

وهكذا فقدت المرأة هيبتها.. وأصبحت قريبة وسهلة. وهذه السهولة أبعدت فكرة الزواج من ذهن الشباب أكثر وأكثر.

والمرأة بدورها تطورت..

شاركت الرجل فى عمله وكفاحه وعرق جبينه.. فأصبح لها مثله الحق فى أن تروح عن نفسها وتستمتع وتقضى وقتا طيبا لذيذا.. تنسى فيه العمل وقرفه..

ولكن كيف تستمتع .. والرجل لا يريد الزواج ويهرب من المأذون..

لامفر إذن من أن تتنازل عن تمنعها التقليدى وتسمح بقبلة أو حضن على الماشى.. وتقول ياباسط..

والرجل الخبيث استحلى الحكاية.. وساق فى التقل والدلال.. ونسى حكاية الزواج خالص.

وقبلة فى حضن.. فى قبلة فى حضن.. أعطت المرأة نفسها للرجل وهى تبكى فى حرقة.. وتقول : إنها تفعل ذلك بسبب الحب والغرام له وحده.. ولأول مرة فى التاريخ.. وإنها لحظة ضعف.. ولن تعود.. إلا إذا كانت هناك وعود وعهود..

ولكن الرجل الخبيث لمض أيضا.. ولماضته لا آخر لها، وهو يسمع البكاء من أذن ويخرجه من أذن أخرى.. وينام على هذه اللذة الظريفة المجانية.. وينسى حكاية الزواج أكثر وأكثر.. وتثور المرأة.. وتهدد.. وتتوعد.. ثم تلجأ الى القطيعة.. ولكن الديك الشبعان ينام فى الشمس ولا يحرك ساكنا.. وتعود الدجاجة

لتعطى نفسها من جديد .. ثم تصبح عادة.. وأفيـونة وبـلاش بلاش.. بس يدوم..

ولكن الرجل لمض ولماضته لا آخر لها.. وهو حينما يـدركه الشبع يدركه الملل.. ويبدأ فى الدلال..

وتبكى المرأة وتمزق نفسها.. ولا فائدة.. لا زواج.. ولا حتى علاقة باقية..

لقد بدأ عصر خطير فى الحب.. اسمه عصر الرجل.

الرجل هو الذى بدأ يجلس الآن على عرش الدلال.. وينـام على سلبية لذيذة ويترك الفتاة تجرى خلفه وتغـازله وتجتـذبه وتغريه وتقرصه فى خده..

وقريبا سوف يعتبر الرجل.. مبادلته للمـرأة لـذات الجنس والفراش.. استسلاما من ناحيته هو.. واغتصابا لبكارته وعفته.. وسوف ينتظر منها الشكر بعد كل مرة تهتك فيها عرضه.

وسوف تصبح المشكلة الكبرى هى مشكلة المـرأة.. وكيف تصل بعلاقتها إلى بر الزواج..

والمرأة.. لا.. ولن ترضى بعلاقة جنسية برجل تحبه.. حتى ولو دامت وتوفر فيها الاخلاص والتفانى..

إن لذة المرأة الكبرى هى أن تحبل وتلد وتكون أما وملـكة

على بيت وأسرة.. وخالقة لجيل جديد تربيه وترعاه.. وزوجة لحبيب تؤنسه.. ويؤنسها. وتتمتع بعشرته وحنانه وحبه واحترامه..

كيف تصل المرأة إلى هذه الغاية.. فى هذه الظروف الجديدة التى قلبت المقاييس.. وقلبت المرأة رجلا.. والرجل امرأة..

إن الحل الوحيد هو أن تكف عن اعتبار جسدها وجمالها وأنوثتها وسيلة كافية وحدها لاجتذاب زوج..

عليها أن تقلع عن هذه السلبية التى لا تقوم فيها بجهد سوى أن تخلع ملابسها..

إن هذا لا يكفى..

إن الرجل الجديد طماع.. إنه يطلب هذا وأكثر من هذا..

والأكثر هو أن تكون للمرأة قيمة فى ذاتها.. أن تكون على قدر عال من الذكاء.. على قدر عال من التعليم.. على قدر كبير من الغنى والثراء.

أن يكون لها أهمية ومركز كبير.. وعربة فارهة. واسم.. وشخصية.. ونفوذ.

تماما كما كانت المرأة تطلب من الرجل زمان.. أن يكون له مركز محترم ووظيفة كبيرة وثروة كبيرة.. وشخصية.. وعربة

كاديلاك.. وفيلا فى المعادى.. وهذه نهاية طبيعية..

ونصيحتى للمرأة أن تجمع فى يدها الكفاءات والمـؤهلات.. لتزغلل الرجل بجمالها وجسمها وكوارعها وشيكاتها وشهاداتها..

إن مشوارها الآن سيكون مشوارا أطول.

جدا.. جدا..

إن أسوأ ورطة نقع فيها هى أن يستحوذ علينـــا أى شـــىء جدا.. جدا.

حتى الفرح حينما يستحوذ علينا جدا.. جدا.. فإنه يهزنا بما يشبه الحزن.. إننا من فرط خوفنا على هذا الفرح.. ومن فـــرط لهفتنا على أن يطول .. ومن فرط ذعرنا من أن ينتهى.. نفـــرح بحزن.. نفرح بخوف.. نفرح والدموع تترقرق فى أعيننا..

إن فرحنا جدا.. جدا.. فرح أليم.. فرح يرتجف.. فرح يبكى..

والحب جدا.. جدا.. هو حب مر غيور ملتهب أعمـــى يبهـــظ صاحبه لدرجة أنه ينقلب إلى كراهية وعداوة..

المحب جدا.. جدا.. يكره حبيبته من فرط حبه لها.. لأن حبه

يكلفه ويرهقه ويبهظه ويؤرقه.. فهو يتمنى لو أنها تعذبت وتألمت وسهرت وتشردت مثله.. يتمنى لو أنها كانت على شفا الموت ونادته.. لو أنها كانت تحترق ومدت له يديها لينقذها.. لو أنها كانت تعبده حبا وهو يتمنع عليها.. لو أنها كانت تخلص له وهو يخونها..

إن عذابه يجعل مخيلته تموج بصور العداوة.. والانتقام.. والتشفى..

إن الحب جدا.. جدا.. حب طعمه مالح حريف لاسع.. إن فيه نفورا ويغضا بقدر ما فيه من حب .. إنه لعنه..

والثراء جدا.. جدا.. هو فقر مدقع فى نفس الوقت.. فقر فى الحواس..

حواس الغنى جدا.. جدا.. المترف جدا.. الشبعان.. المتخم .. الدفيان.. تتبلد.. وتكسل..

أشواقه تكسل.. ولهفاته تكسل..

ولماذا يشتاق.. ولماذا يتلهف.. وكل شىء بين يديه..

والجوع جدا يقتل حتى الاحساس بالجوع.. وينتهى بموت الحواس.. وبشبع الفناء وقناعة الجدث الهامد..

والفقر جدا.. يؤدى إلى الاستهتار والاسراف والاستهانة

بالرزق من فرط قلته.. وكما يقول المثل.. ضربوا الأعمى على عينه.. قال خسرانة .. خسرانة.. وعلى إيه حانحوش إصرف ما فى الجيب يأتيك ما فى الغيب..

والشيخوخة جدا تؤدى إلى انحلال العقل.. والعودة بالتفكير إلى سذاجة الطفولة.. وهذيانها..

والضعف جدا.. يؤدى الى جبروت الشخصية وقسوتها.. وأصحاب العاهات جبابرة.

والقصار جدا.. بهلوانات سيرك..

وأدنياء الأصل طموحون طلابون للعلا..

وأبناء الوجهاء عواطلية.

والاستهتار بشدة يؤدى إلى التوبة.. والرهبنة..

والاغراق فى اللذة يؤدى إلى النفور من اللذة. والارتداد إلى الدين والصومعة..

والاستقامة بشدة تؤدى إلى الضيق بالاستقامة..

وكل شىء يزيد على حده ينقلب إلى ضده..

وجدا.. جدا.. هى الجرس الذى يدق لتنقلب الصفات على رأسها.. البركات تصبح لعنات .. والسيئات تصبح حسنات..

والسعادة ليست فى أن يكون عندك الكثير جدا..

وإنما السعادة فى أن تحب الدنيا والناس.. وأن تواتيك الفرصة لتأخذ بنصيب قليل من خيراتها..

إن القليل الذى تحبه يسعدك أكثر من الكثير الذى لا تحبه.

والقليل يحرك الشهية.. بينما الكثير يميتها.. وبلاشهية لا وجود للسعادة..

والقليل يحفز على العمل.. وفى العمل ينسى الانسان نفسه .. وينسى بحثه عن السعادة وهذا فى الواقع منتهى السعادة.

والعمل تشحيم ضرورى للعقل والقلب والمفاصل.. وبدون العمل تصدأ المفاصل ويتعفن القلب وينطفئ العقل.. وينخر سوس الفراغ والبطالة فى المخ.. فتبدأ سلسلة من الأوجاع يعرفها أفراد الطبقة الراقية.. ويعرفها أطباء الطبقة الراقية..

ولذلك أعتقد أن أسعد الطبقات هى الطبقة المتوسطة.. لأنها الطبقة التى تملك القليل من كل شىء، فهى ليست معدمة مفلسة كالطبقة الدنيا، وليست متخمة كالطبقة الراقية..

ولهذا فهى الطبقة التى تملك الدوافع .. والآمال.. والمطامع والمثل العليا.. والأخلاق.. والامكانيات..

وهى لهذا.. الطبقة التى يخرج منها العلماء والفنانون والعباقرة والزعماء والأنبياء..

ومن فضائل الوسطية أنها تضغط الطبقات وتذيبها فى عجينة متوسطة خصبة.. وتشغل جميع الأيدى بالعمل..

إن المليون جنيه شتمه..

والذى يقول لى.. إلهى يرزقك بمليون جنيه.. كمن يقول لى.. إلهى يرزقك بكارثة..

وتعالوا نفكر معا..

لو أنى وضعت المليون جنيه فى بنك لكنت بهذا أرتكب جريمة بتجميد هذه الامكانية المادية فى رصيد باسمى.

ولو أنى أنفقته على نفسى لكنت بهذا أرتكب جريمة أبشع لأن إنفاق مليون جنيه على نفسى معناه أن أتوقف عن كل عمل منتج.. وأتحول إلى مستهلك ينفق فقط.. وهذا معناه شلل كامل فى قواى الانتاجية..

ولو أنى انتفعت بالمليون جنيه كرأسمال تجارى، فسيكون معناه استغلال ألف عامل.. وملايين المستهلكين المساكين.. أتاجر بهم.. وأتاجر عليهم .. وأبتز أموالهم لمجرد أنهم لايملكون إلا أثمان بضاعتى.. بينما أنا أملك كل الخامات التى يحتاجون إليها..

إن المليون جنيه فى يد واحدة هى فى الواقع إمكانية ظلم

لا نهائية لآلاف الأيدى التى لا تملك.. وإمكانية ظلـم حقيقيـة لصاحبها لأنها تضعه فى قائمة الذين يملكون كثيرا جدا.. جدا.. ويخسرون من أرواحهم بقدر ما يكسبون لأرصدتهم..

ولهذا فأنا أشعر بالسعادة .. لأنى رجل متـوسط.. إيـرادى متوسط.. وصحتى متوسطة.. وعيشتى متوسطة..

وعندى القليل من كل شىء.. وهذا معناه أن عندى الكثير مـن الدوافع..

والدوافع هى الحياة..

إنها الرصيد الذهبى لكل المكاسب الورق..

إنها المتجمد فى خزينة كل إنسان.

إنها المتجمد الذى نفك منه كل يوم الـرغبات التـى نعيش بها..

ونحن نعود فنفك هذه الرغبات إلى خبطات مادية.. وفـرص نكسبها ونخسرها..

وهذه الخبطات هى العملة الورق..

أما الرصيد الحقيقى فهو الدوافع.

الدوافع فى قلوبنا هى حرارة حياتنا الحقيقية.. وهى الرصيد الذى يكون به تقييم سعادتنا.. لا تسألنى.. هل عندك صحة..هل

عندك ثروة.. هل عندك شهادة.. هل عندك فرصة.. هل عنـــدك أملاك..

اسألنى سؤالا واحدا..

هل عندك دوافع..

فهذا أنا .. وهذه حقيقتى التى بها تعرف حاضرى ومستقبلى ومصيرى وقيمتى ووزنى..

وكل منا يوزن بقدر دوافعه وإرادتــه.: وعــزمه.. وإصراره.. وقواه الحافزة..

إن الذى يملك وفرة من الدوافع مثل المــاكينة قــوة مــائة حصان.. أو العربة ستة سلندر أو الراديو عشرة لمبة أو التيــار الكهربائى ٢٠٠فولت.

أما الذى يفتقر إلى الدوافع .. ويمتلك كثرة من وسائل الترف ووفرة من الصحة والعمر فهو حتى ولو كان مليونيرا لا يزيد عن ماكينة ضعيفة قوتها الدافعة ٢حصان أو عربة صغيرة ٢ سلندر أو راديو ترانزستور أو تيار بطارية واحد ونصف فولت.

الدوافع هى الترجمة الحرفية لكلمة روح..

عندك دوافع معناها عندك روح.. معناها عندك أمل.. طموح.. حب.. شغف.. شهية.. رغبة .. كل وسائل السعادة..

إنى أدعو الله لقارئ هذه السطور أن يمنحه حياة متوسطة.. ويعطيه القليل من كل شىء.. وهى دعوة طيبة والله العظيم.. دعوة نصوحة.. مخلصة لوجه الخير والحب.

أدعو الله أن يقيه شر المليون جنيه.. وأن يحفظه من ملكية العمارات الشاهقة .. والأبعديات العريضة..

وأمى لم تكن تفهم الفلسفة.. ولكنها كانت تملك فطرة نقية تفهم معها كل هذا الكلام دون أن تقرأه.. وكانت تطلق عليه اسما بسيطا فصيحا معبرا..هو.. الستر..

والستر معناه فى القاموس الشعبى.. القليل من كل شىء والكثير من الروح..

وأنا بعد ثلاثين سنة من التفلسف وقراءة المعاجم والمراجع والمصطلحات.. لم أجد أفصح من هذه الكلمة البسيطة .. الستر..

ولهذا فأنا أطلبه لك كما كانت أمى تطلبه لى.. وأعتبر أنى بهذا أكون قد طلبت لك كل شىء..

ملحوظة:

أنا متأكد أنك بعد قراءة هذه الكلمات سوف تمصمص شفتيك وتقول.. وإيه يعنى.. ما هو مفهوم الكلام ده..

ومع هذا فإنك فى أول فرصة تقع فيها علــى كاديــلاك٨١فى الشارع سوف تصرخ بلهفة وعيناك تكادان تخرجان من رأسك..

ياسلام لو الواحد عنده عربية زى دى.. يــاسلام يــاولاد.. ياسلام على كاديلاك وعمارة ومليون جنيه.. ياخواتى.. ويحــرقة أكثرمن حرقة مطربى هذه الأيام ســوف تــكتشف أن كلامــى العادى المفهوم لم يكن مفهوما.. وأنك لم تكن فى أى يوم فاهما لنفسك.

وأن حكاية الفهم.. حكاية طويلة ومتعبة.. جدا.. جدا..

الجنس اللطيف

ما يقال من أن المرأة جنة وارفة وروضـــة ظليلــة وراحــة وسعادة ونعمة إلهية.. صحيح..

وما يقال من أنها جحيم.. وعذاب مقيم.. وتعــب فى تعــب.. وغلب أزلى.. صحيح أيضا.

ولن تعرف المرأة إلا إذا جربتها على وجهيها.. وذقتهــاحلوة ومرة .. وعشت معها قاضيا تحكم عليها ومتهما تحكم عليــك.. وسجانها وسجينها فى نفس الوقت..

ومهما يقال عن الحب بين الرجل والمرأة، فالحب قطعا ليس العاطفة الوحيدة التى تربط الجنسين.. فهناك أيضا الحــرب.. الحرب الدائمة بين الجنسين.

التعاون على المعاش.. والتناحر على السيادة.

والمرأة لا يكفيها أن تكون سيدة على بيت الـرجل وقلـب الرجل.. وإنما تريد أن تكون سيدة على عقله وأفكاره.. تريد أن تستأثر بكل ذرة من اهتمامه .

والرجل بالمثل يريد أن تكون كل فكرة فى رأس المرأة التـى يحبها هى فكرة خاصة به.

لا يكفيه أنها تعد له الطعام وتدبر البيت وتـربى الأطفـال، وإنما يريد أن يتم كل شىء من هذه الأشياء بـإشارته وأمـره وتدبيره.. يريد أن يتملك جسم امرأته وعقلها وعواطفها.

هناك محاولات متبادلة للاحتكار ووضع اليد.. والشاطر اللـى يركب الأول..

كل واحد يريد أن يمسك بزمام الآخر.

هناك أشياء أخرى غير الحب والحنان.. أهم من الحب ومن الحنان.. هى السيطرة وبسط النفوذ والقوة.

والمرأة تحب.. وحبها يلقى بها فى دوامة من القلق ويضعفها ويخضعها ويضيعها.. وهى تكره نفسها لأنها تحـب وتضـعف وتهون إلى هذه الدرجة.. وحبها وكراهيتهـا يتحـدان معـا فى سلوكها نحو الرجل فتسعى إلى امتلاكه لتضمن أن حبها الذى

بذلته لن يضيع.. ولتشعر أنها تودع نقـودها فى خـزانة تملك مفتاحها.

والرجل يعانى من نفس الموقف.. ولكن مشكلته أكبـر لأنـه يدرك أن ضياع شخصيته فى الحب هو فى نفس الوقت ضـياع لعمله وحيثيته وقيمته ونجاحه فى المجتمع.. رجل بلا شخصية.. معناها رجل بلا رجولة.. بلا مستقبل فى أى شـىء .. ضـياع نهائى.. وهو لهذا يتمسك أكثر بأن يسود المـرأة ويخضـعها ويمتلكها.

وصراع القوة بين الاثنين يولد الخوف والتربص والـكراهية والقسوة..

كل واحد يحب ويكره فى نفس الوقت.. يـكره أن يضـعف.. يكره أن يخضع..

والنتيجة أن تتحول العلاقة بين الاثنين إلى علاقة معقدة.

لا نجد ذلك الحب البسيط الواضح.. وإنما نجد دائما عاطفة متوترة متناقضة غامضة.. فيها الحب.. وفيها العداء.

ويصبح كل جنس بالنسبة للآخر مـلاكا وشـيطانا فى نفس الوقت.. بلسما رحيما.. وجلادا قاسيا..

ولا أحد يدعى على الآخر دعوى ليست فيه.. وإنمـا هـى الحقيقة.

كل منهما.. ملاك رحيم.. وجلاد رجيم فعلا.

وانت إن لم تشعر أحيانا برغبة فى أن تشتم المرأة وتحمل عليها حملة شعواء، وتشكوها لطوب الأرض.. فأنت لن تكون قد فهمت المرأة.. ولا فهمت نفسك..

لا بد من سيل من القبلات والصفعات.. ليشعر كل واحد أنه قال ما عنده..

لا بد من موشح من الردح الأصلى يضاف إلى قلائد من الشعر والمديح.. حتى تتوازن الكفة.. ويشيل الكلام بعضه.. على رأى البقالين..

اسمحن لى ياستات.. أن أشتمكن ولو مرة واحدة.. بعد عشر سنوات قدمت فيها كل ما فى دواوين الشعر من عبادة وإجلال.. حتى أنام مطمئنا بأنى قد صفيت حسابى.

* المرأة تتحدث دائما عن إخلاصها للرجل الذى هجرها.. لتهتف باكية.. الرجال كلاب.. خونة.. غدارون.. وتنسى أن تتحدث عن الرجال الذين أخلصوا لها وغدرت بهم.. لأنها فى الغالب.. لم تلحظهم..

* كل أحاديث المرأة فى فترة الخطوبة عن غرامها بالثقافة والفلسفة والفكر هى أكاذيب تكشفها حقائق أول أسبوع بعد

الدخلة.. حينما تبدأ الأحاديث تدور حول الفساتين والموضة وتسريحات الشعر.

كلهن فى هذا الهم سواء.. من حاملات الدكتوراه.. إلى حاملات الاعدادية.. إلى جاملات الطشوت..

* لا تصدق أن غيرة المرأة حب وشكها غرام.. وإنما غيرتها دائما عذر تنتحله لتمتلكك وتحجر عليك وتستولي على حريتك.. إنها الأنانية بعينها..

والغريبة أنها بعد أن تستولى عليك وتطمئن إلى خضوعك.. تلقى بك فى أول مزبلة.. وتبحث عن غيرك.

حذار أن تمتلكك زوجتك.. وتطمئن إلى طاعتك..

* الغسالة الكهربائية والكناسة الكهربائية وحلة الطبخ الأوتوماتيكية أراحت الزوجة جدا.. وجعلتها تتفرغ لنتف ريش الزوج الغلبان ووجع دماغه.. كان يجب على الرجل أن يخترع شفاطة كهربائية تشفط صوت زوجته وثرثرتها.

نصيحة مخلصة.. اعتمدوا على المكانس اليدوية فإنها مفيدة لكنس النكد أيضا.

* حينما تقول لك المرأة .. لا تلمسنى عيب..إياك .. أنا لا أعرف إلا الهوى الأفلاطونى.. أنا لا أحب ذلك الشىء

الآخر.. فإنها تكون فى الواقع تفكر فى ذلك الشىء الآخر بشدة..

* من السهل أن تعثر كل يوم على امرأة تكره امرأة وتـكيد لها.. ومن الصعب جدا أن تعثر على امرأة تخلص لامرأة أخرى الصداقة والود.. فالصداقة فن من اختراع الرجل وحده..

* المرأة تحرص على أن يكون لها جيش من العيال ليزداد عدد الأصوات التى تصوت فى صالحها فى خناقة كل يوم.

* أبغض شىء إلى قلب المرأة خلفة البنات.. لأنها فى الواقع لاتحب جنسها..

* الحماة أول جهاز مخابرات فى العالم..

* المرأة تتمسك بشدة بصحبة النساء الأقبح منها..

* الصحافة والاذاعة والتليفزيون والسينما والجاسوسية هى أصلح المهن للمرأة، لأنها بطبيعتها تملك حاسة قوية تشم بها الأخبار.. ولأنها ثرثارة.. محبة للظهور.. ممثلة.. مغرمة بالوشاية..

أما المهن التى اشتهرت المرأة بإجادتها .. كالطبخ والكنس والحياكة والموضات فهى دعاية لا ستدراج الأزواج إلى العش السعيد.. بينما الحقيقة أن الرجل هو سيد هذه المهن أيضا فأمهر الطباخين والترزية والمكوجية والزبالين ومصممى الأزياء رجال..

والمرأة حينما تتعلل فى العادةِ بأنها لا تستطيع مزاحمة الرجل فى أعماله لأنها لا تملك عضلاته تكذب مرة اخرى.. فالتلحين لا يحتاج إلى عضلات ومع ذلك لم نسمع طول عمرنا عن ملحنة واحدة ذات وزن.

والفلسفة لا تحتاج إلى عضلات ومع ذلك لم نقرأ عن فيلسوفة واحدة..

والله لم يختر لحمل رسالته نبيات..وإنما اختار أنبياء.. مع أن النبوة لا حاجة بها إلى عضلات.. وكل ما يحتاجه النبى.. قلبه.. ولسانه..

* الملاحظ أن الزوجة إذا كانت ست بيت فإن حديثها يصبح دائما خناقة يومية مع الزوج ليسمح لها بالعمل مثل صاحباتها اللاتى يعملن ممرضات ومدرسات ومهندسات.. والواحدة لازم تكافح.. ويعنى الواحدة بتتعلم عشان تتسجن فى البيت.

والغريبة أن الصاحبات المكافحات فى نفس الوقت لا شاغل لهن كل يوم غيرالشجار والنقاش مع أزواجهن ليقعدن فى البيت.. وبلا شغل وبلا نيلة.. عاوزين نشوف بيوتنا.. خدنا إيه من الخيلة الكدابة دى.. فإذا وافق الأزواج على قعودهن فى البيت.. تبدأ الزوجات فى البكاء طلبا لخدامة.. تشوف البيت .. وأيدينا اتقطعت م الشغل قطيعة الجواز وسنينه.. فإذا أحضر الأزواج

الخدامة، بدأت الزوجات تختلقن أسبابا لطردها.. وقطيعة الخدامين وسنينهم.. الواحدة رايحة جاية عينيها فى وسط رأسها.

وهن يطلبن الخلفة.. فإذا لم تجئ الخلفة شتمن الزوج.. وإذا جاءت الخلفة شتمن الخلفة.. وقطيعه العيال وجلبهم..

شيء يحير..

* تظل الزوجة تشكو زوجها لطوب الأرض .. المجرم الخباص.. الخاين.. الهلاس.. اللى مايتمرش فيه العيش والملح.. وتغضب عند أمها.. وتعتصم عند خالتها.. حتى يموت الزوج الغلبان.. فتقف الزوجة فى جنازته بكل بجاحة وتشق هدومها وتحل شعرها وتفقع بالصوت.. ياجملى.. ياسبعى..

* متأسف لهذه الحملة الشعواء على المرأة .. إنها حملة موسمية كالخماسين يعرفها الأزواج السعداء.. ويحتاجون إليها بشدة أحيانا.. وحانعمل إيه.. فى الجنس الحلو الذى نموت فيه.. ونموت منه..

الوهم

محمد أفندى بسيونى رجل عادى.. أنفق نصـف عمـره فى التعليم والنصف الآخر فى نسيان هذا التعليـم علـى مـكتب الوظيفة..

لا يثيره إلا شىء واحد فى الدنيا.. أن تقـول لـه: إن زرار جاكتتك مفكوك.. وشكلك غير محترم .. فليس له سوى مثل أعلى واحد هو الاحترام..

طول عمره وهو يجرى خلف هدف واحد.. هو الاحترام..

دخل كلية التجارة ليقال إنه جامعى محترم.. والتحق بوظيفة ثابتة ليقال إنه موظف محترم .. وتزوج فى سن مبكرة ليقال إنه زوج محترم.. واختار أصدقاءه من كبار الموظفين ليقـال إنـه

إنسان محترم.. ولبس الطربوش والكرافتة فى أغسطس ليقال إنه رجل محترم..

وهو قبل أن يتحدث يفكر قليلا.. لافيما يريد أن يقوله.. وإنما فيما يقوله الناس المحترمون عادة فى هذه المناسبة أو تلك.. ثم يردده فى سعادة وهو يفرك يديه وينظر حوله فى عيون المستمعين ليجمع منها نظرات الاحترام كما يجمع الفلاح لوزات القطن من حقله..

لا يحب زوجته. ولا تطيقه زوجته.. ولكنه يحتفظ بشكل العلاقة بينهما حتى يظل محترما..

لا تستطيع أن تعرف بالضبط.. ما هو.. لأنه فى الغالب ليست له.. هو.. التى يملكها الرجل الحر..

إنه حسب ما ترغب أنت.. لا حسب ما يرغب هو.. لقد باع شخصيته ليشترى احترام الناس ورضاهم، ولم يفكر لحظة واحدة فى مدلول هذا الاحترام.. ولم يناقشه ولم يشك فيه.. فهو قيمة عليا تتضاءل أمامها كل حقيقة حتى حقيقته.

وقد لقينى اليوم محمد أفندى بسيونى وكان يبدو عليه الاشمئزاز.. وسألته ما الخبر.. فقال فى تقزز :

– جيل ملعون .. تصور خادمتنا الصغيرة التى لا تتجاوز السادسة عشرة اكتشفت اليوم أنها حامل.. وتقول لى إنها حامل

من ابنى.. الكذابة بنت الـ.. أهذا معقول.. ابنى يفعـل هـذا.. ابنى المتربى الذى نشأ فى عائلة محترمة..

فقلت له فى هدوء:

ـ هذا لا يحدث عادة إلا فى العائلات المحترمة.

إنها عائلات مصابة بالامساك المزمن.. ومـن المـألوف أن تصاب بانفجار فى المصران فى أحد الأيام..

ـ ما هذا الهراء الذى تقوله..

ـ أنا أقول الحقيقة.. وماذا فعلت فى الخادمة؟..

ـ طردتها طبعا.. وهل يعقل أن أعيش مع هذا الوباء..

وكان يبدو أنه لا يريد أن يستمع إلى المزيد من تعليقاتى .. كنت فى نظره نوعا آخر من الوباء لا يستحب السير معه..

ومضى فى طريقه.. ومضيت فى طريقى.. ولكنى ظللـت أفـكر فيه..

إنه ذاهب لينام مع امرأة لا يحبها ولا تحبه.. يفعل هـذا فى مقابل احترامى..

وزوجته تفعل هذا فى مقابل ثلاث وجبات ومصروف يـد.. وفى مقابل احترامى أيضا..

والابن الذى ظل يأكل الاحترام ويشرب الاحترام عشرين عاما.. تقيأ هذا الاحترام دفعة واحدة فى مقابل لحظة مع الخادمة..

وربما كانت هذه الخادمة هى ضحية الكل.. فقدت عملها وعذريتها وربما حياتها فى حمل مجهول المصير.. وكل هذا بلا مقابل.. حتى الاحترام فقدته إلى الأبد.. حتى الذكرى أصبح لها اسم بغيض..

وهى فى نظرى أتعس الكل لأنها الضريبة المدفوعة عن كل خطايانا..

إنها الزنا الصغير الذى يستر الزنا الكبير الذى يجرى فى البيوت باسم الزواج.. والنفاق الأكبر الذى يجرى فى المجتمعات باسم الاحترام.

إن محمد أفندى بسيونى منافق كبير مهما لبس من أقنعة محترمة، وابنه يحمل من الأثم اكثر مما تحمل الخادمة البائسة التى وقع عليها وزر الجميع.

سبب للتردد

الرجل بالرغم من قوته وسطوته وهيلمانه.. غلبان.. إنه قوام على المرأة.. وصى عليهـا.. سـابق عليهـا فى الشـهادة.. وفى الميراث.. وفى الاعتبار.. إمبراطور على بيتها يحكم فيـه ويعـز ويذل ويهدمه إن شاء بكلمة من فمه.. ولكنه يعلم أن كل هـذه السطوة والسيادة خرافية.. وأنه إمبراطور غلبـان علـى دولـة وهمية من ورق اللعب..

إنه فى احتياج إلى المرأة .. مهما فعل..

وهذا الاحتياج يقلم أظافره ويخلع أنيابه ويروض وحشـيته ويعود به وديعا ذلولا طيعا حانيا على صدر امرأته..

وماذا يجدى الصياح والصراخ والهدير والزئير.. والقلب مـن الداخل يتمسح كالقطة..

إنه فى حاجة الى المرأة ليبنى حبا.. فى حاجة إليها ليبنى بيتا.. فى حاجة إليها ليكون ربا لأسرة..

وهو يدرك هذا الضعف فى نفسه.. ويقاومه.. ويحاول الخلاص من ربقته.. فيتخذ من المرأة زميلة أو صديقة أو عشيقة أو خليلة.. ويتجنب الوقوع فى شرك الزواج حتى لا تصبح حاجته ضابع حياته كلها..

إنه يتجنب الوقوع فى الاحتياج الدائم.. بالوقوع فى الاحتياج المؤقت .. يشبعه من وقت لآخر.. بكلمة أو وعد بالحب.. أو قبلة.. أو ساعة فراش.. ثم يذهب كل واحد منا إلى حاله.. بدون أمل.. وبدون خيبة أمل..

والخوف .. الخوف وحده هو الذى يجعله يتردد.. ويؤخر زواجه سنة بعد أخرى.. الخوف من ضعفه.. والخوف على قوته.. والخوف على أوهامه..

الخوف من ألا يجد الاخلاص..

الخوف من أن يبنى بيته على كذبة..

وماذا هناك أشنع من الأكاذيب..

وماذا هناك أشنع من أن تخونه زوجته.. وتنجب له أولادا من الآخرين..

وماذا هناك أشنع من أن يكون رب أسرة مزعومة.. وزوجا غير ذى موضوع..

ولماذا التعب..

إن الموت فى عزوبة ووحدة أفضل وأصدق من زواج اسمى..

والمرأة تدرك فى نفسها هذه القوة.. إنها هى الوحيدة التى تستطيع أن تصنع بيتا.. إنها هى الوحيدة التى تملك رحما ينجب الأولاد..

إن خيرها وشرها يصنع واقع البيت.. أما الرجل فأخطاؤه شفوية لا تترك أثرا.. ومع هذا فهو المسئول.. هو الذى يعمل ويكدح وينفق ويحمل همها.. ويحمل عارها أيضا .. فالمجتمع يمسح فيه أخطاءها حينما تخطئ.. ويقول عنه إنه ناقص الرجولة..

وهى حرة.. بإشارة من رمش عينها.. ونزوة طارئة ومشوار نصف ساعة بحجة الخياطة أو الكوافير أو طبيب الأسنان.. تستطيع أن تعود حاملا فى طفل غير معروف الأصل..

إنها هى وحدها التى تشكل واقع البيت كما تشاء.. بالصدق أو الكذب.. بالحرام أو بالحلال..

والرجل وحده هو الذى يدفع الثمن كاملا رضى أم لم يرض.

إن الزواج مجازفة تقتضى من الرجل كل شجاعته..

إن الرجل يضحى بحريته وراحة باله فى سبيل إقامة بيت لايعرف مصيره.. وعزاؤه الوحيد.. هو هذا الزعم الخرافى.. بأنه سوف يصبح ربا وسيدا وقواما على أسرة.. وهو فى الحقيقة سوف يصبح عبدا لألف حاجة وحاجة.. وألف طلب وطلب وخادما لأصغر فرد فى هذه الأسرة..

ولهذا يتردد الرجل فى الزواج.. ليس لأنه شاطر.. وليس لأنه ناصح .. ولكن لأنه يعلم أنه خيبان.. ولأنه لايريد أن يحتفل بخيبته..

وإذا كان الجيل القديم من البنات كان عنده من وازع الدين والتقاليد ما يعصمه من الزلل والخيانة.. ويجعل منه جيلا كفؤا لحمل مسئولية البيت بشكل يطمئن الرجل.. فإن الجيل الجديد جيل مسعور بالحرية مشغول بالبحث عن حقوقه ومسراته قبل البحث عن واجباته..

والبنت الجديدة تتحدث عن حقها فى المغامرة.. وحقها فى أن يكون لها صديق وحبيب.. وعن حقها فى السهر.. وفى الرقص وفى دعوة الرجال إلى بيتها..

وفضيلتها الوحيدة.. فضيلة الحب وإختيار الزوج.. فضيلة قلقة ومبلبلة.. فهى ما زالت تتخبط بين حبها لرجل لا تتزوجه..

وزواجها من رجل لا تحبه.. وهى فى اللحظة الحاسمة. لحظة اختيار الزوج.. تشك فى نفسها.. وفى اختيارها.. وفى حبها.. ولا تعرف.. هل هى اختارت هذا الرجل بالذات لأنها تحبه حقا.. أم أنها فى الحقيقة قد ضاقت بالقيود فى بيت أبيها فأرادت الهروب من هذه القيود عن طريق أية دبلة يقدمها لها أى رجل.. أم هي قد ضاقت بعنوستها وخشيت البوار .. وخافت أن يفوتها القطار.. فتعلقت بأية عربة ساقتها لها الصدفة..

وكل هذه البلبلة تتفاقم وتتضح بعد الزواج..

وعلى الرجل أن يواجه هذه البلبلة.. ويتزوج هذه البلبلة.. ويرهن مصيره فى هذا البنك المفلس غير الواثق من عواطفه..

وهذه محنة الرجل.. الامبراطور المزعوم..

والبنت الجديدة تطمئن الرجل بأنها سوف تعمل وتكافح وتكسب مثله لتشاركه فى المعاش..

ولكن الحقيقة أن الخمسين جنيها التى تكسبها المرأة المكافحة تنفقها على نفسها ثمنا للروج والفساتين والمواصلات.. ويبقى البيت فى حاجة الى طباخ وخادمة ومرضعة ومربية.. لأن المكافحة تخرج فى الصباح ولا تعود إلا فى المساء.. وإذا عادت فى الظهر فإنها تكون مرهقة لا تصلح إلا للنوم.. وبعد القيام من النوم يلزم لها ترفيه طبعا لأنها مكافحة..

إن تردد الرجل العصرى أمام الزواج.. إذن ليس شطارة.. وليس دوارة.. ولكنه محنة حقيقية.. والبنات من حوله يزدنه شعورا بهذه المحنة يوما بعد آخر.. ويزلزلن الأرض تحت قدميه.. الأرض التى يريد أن يبنى عليها بيته..

وليس معنى هذا أن كل النساء خائنات.. لا أبدا.. إن الفضيلة ما زالت هى الغالبة.. ولكنها فضيلة حائرة مبلبلة غير واثقة من نفسها.. وهى تنقل عدواها إلى الرجل فيفقد الأمان ويفقد الثقة هو الآخر..

وسنوات الشباب تمر بسرعة..

وأحلام الرجل فى الزواج والاستقرار تتضاءل..

فى سن الثلاثين يحلم بزوجة جميلة فاتنة متعلمة من عائلة محترمة..

ولكن التردد يضيع عليه فرصة بعد أخرى.. حتى يبلغ الأربعين.. ويفقد غرور الشباب، فيتنازل عن اشتراطاته.. ويتواضع فى أحلامه.. وحسبه فى هذه السن أن يعثر على فتاة مقبولة الشكل.. من عائلة محافظة تقدر الحياة الزوجية..

فإذا تقدم به السن أكثر من هذا فهو يبحث عن فتاة بها عيب لترضى به.

ويطل رواية «وجهان فى المرآة».. وهو مدرس تقدمت به السن.. يبحث عن فتاة قبيحة.. إمعانا فى التواضع.

وهو يفرح حينما يعثر على مارى جوزى. . العاملة العانس التى فاتها قطار الزواج.. والتى يكلل وجهها أنف كبير مثل أنف سيرانو دى برجراك يطرد العرسان على بعد كيلو متر..

وهو يفرح أكثر حينما يكتشف أنها هادئة وديعة.. لاتحب السهر ولا الرقص.. ولا الاختلاط بالشبان..

ويتزوجها وينجب منها ولدين ويعيش فى سعادة..

ولكن المصادفة تقود فى طريق البيت طبيبا للتجميل..

وتجرى الزوجة جراحة لتصغير أنفها.. وتنقلب إلى امرأة فاتنة يتودد إليها الرجال.. وتنقلب جنة البيت فى نفس الوقت الى جحيم.. فالزوجة الوديعة الهادئة التى كانت لاتحب السهر ولا الاختلاط بالشبان أصبحت تموت فى السهر والاختلاط بالشبان.. وهى فى النهاية ترتمى بين ذراعى عشيق لتخون زوجها..

إن فضيلتها تبخرت.. إنها لم تكن فضيلة.. لقد كانت ظلا مهزوزا لوجه قبيح مشوه.. كانت بلبلة امرأة غير واثقة من نفسها ولا من عواطفها..

ويتحطم الرجل.. ويتحطم البيت..

وهذا الرجل فيه مخاوف كل رجل.. وفيه قلقه وعذابه. وبحثه عن الاطمئنان فى جيل مهزوز.. واستعداده لأن يدفع فى سبيل هذا الاطمئنان أى ثمن.. حتى الزواج بعانس قبيحة..

إن المصيدة التى اصطادت هذا الرجل لم تكن قلم الروج ولا قلم الكحل.. ولكنها كانت الاحساس الذى تسلل إلى قلبه بأن هذه المرأة وحدها سوف تكون راحته واطمئنانه..

وهذه مشكلة كل رجل..

إن الرجل فى حقيقته ليس إمبراطورا وليس ربا لأسرته ولكنه عبدا لهذه الأسرة وخادما لأصغر فرد فيها.. خادم لا يطلب إلا الأمان والاطمئنان بأفدح الأثمان..

المزاج

الحب عاطفة غير ديمقراطية..

الحب هتلر .. نيرون.. كاليجولا.. يـأمر دون أن يحـاول أن يبرر أوامره أو يبحث لها عن منطق أو أغلبية تساندها..

إنه طاغية حر.. حرية لا تقبل مراجعة..

إنه منتهى الحرية..

إنه الحرية التى تسقط فيها المـوانع.. ويختفـى الآخـرون ولا يبقى فيها إلا أنا وحبيبى.. أنا وروحى.. أنا وأنا..

وهذا سر اللذة التى تدوخنا ونحن نحب.. والحـالة الملـكية السلطانية التى نعيش فيها ونحن نعشق..

ولو أن الحب كان موضوعا للنصح والمشورة والمنطق، لأصبح موضوعا عاديا كالزراعة والتجارة والهندسة.. ولأصبحنا نرسم قبلاتنا على الشفاه كما نرسم الكبارى على الورق..

ولكن القبلة ليست مشروعا.. إنها شيء كالمرض.. إنها حمى تدوخ الرأس وتفك صامولة المفاصل..

وأنت لا تستطيع أن تقبل حبيبتك وأنت فى نفس الوقت تقرأ الجرائد وتهز ساقيك..

إن القبلة تستولى عليك كلك.

أما رسم كوبرى على الورق فهو مشروع هادئ بارد تقوم به وأنت تدخن وتصفر وتلقي بالنكات من حولك.

فى جلسة شاعرية روى لى صديقى قصة حبه، وقال يشرح لى عواطفه التى استمرت ثمانى سنوات تدور حول امرأة واحدة.

إنها حبيبتى .. حياتى.. إننا شخص واحد.. عيوبها أصبحت كعيوبى أحتضنها وأبحث لها عن عذر.. ورغباتى تعبر هى عنها قبل أن أنطق بها..

انتهى بيننا ذلك الشيء الذى اسمه.. الخجل .. والكرامة.. والاهانة.. والكبرياء.. فأنا أخلع ثيابى فى حضورها وكأنها غرفتى الخاصة.. وهى تخلع ثيابها أمامى وتتفوه بالعبارات التى

تخجل أن تقولها لنفسها.. تقولها لى بفرح الطفلة التى لا تعرف الحياء..

لم نعد نعرف العيب.. لأننا فقدنا الاتصال بالناس.. واكتفينا بأنفسنا.. هى لى.. وأنا لها.. أنا أكتب لها.. وأسهر لها.. وأشرب لها.. أنا هو أنا.. لأن هناك فى الدنيا امرأة اسمها كذا.. جعلت منى الرجل الذى تراه أمامك..

وتكلم كلاما كثيرا بحدة وانفعال.. وهو يشرب ويسكر..

وتساءلت وأنا أفكر.

هل كان أى من الأسباب التى ذكرها.. هو السبب الذى جعله يحبها كل هذا الحب..

لا أظن..

إنه يحبها.. لأنه يحبها.. هكذا ببساطة..

إن كل واحد من هذه الأسباب يمكن أن يكون سببا للنفور.. ويمكن أن يكون سببا للحب.. ومزاجه هو الذى جعل منه سببا للحب.

لو أنه أحب امرأة خجولا.. لأصبح خجلها من دواعى حبه.. ولو أنه أحبها متكبرة لأصبح كبرياؤها من دواعى عبادته.

الحب ليس له صورة يعرف بها.. .

إنه مرآة المزاج.. والمزاج متقلب مع العمر.. وله فصول.. مثل فصول الصيف والشتاء والربيع والخريف.

وصاحبى فى صيف مزاجه.. والمرأة التى يحبها هى امرأة صيف.. وغدا فى ربيع مزاجه سوف يحب امرأة أخرى .. بالرغم من كل هذا السكر والانفعال.. وسوف تكون على نقيض الأولى فى صفاتها.. وسوف يسكر مرة أخرى فى صحتها..

إن الحسنة على الخد التى نظن أنها هى التى أوقعتنا فى الهوى.. ينظر إليها غيرنا فى نفور واشمئزاز ويعتبر أنها عيب.. والمسألة مسألة كيف.. والكيف هو الذى يلون لنا الصفات التى نحبها..

ودولة الكيف دولة بلا دستور.

والمزاج هو الرقعة الوحيدة الحرام التى لاتدخلها معقولية ولامنطق..

إن الواحد منا لا يعقد برلمانا من عائلته ليقرر إن كان سيشرب الشاى أو القهوة.. وهو لا يضع مبررات ولا يقدم حيثيات لا ختيار البدلة الكحلى أو البدلة الرمادى، وإنما هو فى العادة يكتفى بأن يقول.. أنا عاوز كده. فإذا قالوا له.. إن الشاى يعمل لك إمساكا.. والقهوة تسهرك.. واللون الكحلى غامق عليك فى الصيف .. فإنه يكتفى بأن يقول مرة أخرى .. ياإخوانا

أنا بحب كده.. كيفي كده .. هوايا كده..

وهو فى العادة يشرب الشاى ويلبس الكحلى .. ويمشى على مزاجه ولا يعبأ بأحد..

ليه ؟ !..

الناس تأكل الشطة.. وتصرخ من الألم.. ليه..

مزاج..

والمزاج هو الحرية..

إنه مجال حريتنا الوحيد .. فى وسط الأسلاك الشائكة المكهربة المنصوبة حولنا:

إن نفوسنا المسكينة محاصرة بالواجبات.. والالتزامات.

التزامات العائلة..

والتزامات المدرسة..

والتزامات الوظيفة..

والتزامات الطبقة الاجتماعية التى ننتمى إليها..

والتزامات الخلق.. والدين.. والصداقة.. والمجاملة.

وفى وسط هذه المطاردات التى يطاردنا فيها الآخرون نبحث لنا عن لحظة.. تكون ملكنا.. نبث فيها مكنونات قلبنا.. وذات

نفوسنا وأشواقنا.. وهذه اللحظة هى مزاجنا.

فنجان الشاى.. والسيجارة.. وقرن الشطة.. وسلطانية المخلل.. والدردشة مع نفس نحبها فى ساعة صفاء، هذا كل ما تبقى لنا من الدنيا.. ولهذا نتمسك جدا بهذه الساعة ولا نقبل فيها مساومة أو منطقا أو نصحا أو مشورة، لأن هذه اللحظات هى لحظاتنا.. مزاجنا.. حريتنا.. إنها مثل شاربنا.. لا نقبل أن يساومنا أحد فى مصيره.. نحلقه حينما نريد أن نحلقه.. ونربيه حينما نريد ان نربيه.. مجموع ما تنفقه الدولة لا ستيراد اللب والسودانى والبندق والفسدق والسجاير والخمور والأفلام السينمائية والكتب البوليسية وأجهزة الراديو والتليفزيون والاسطوانات وأشرطة التسجيل وورق الصحف وأصناف البارفان.. أكبر مما تنفقه على إنتاج الحديد والصلب .. وهذا طبيعى.. لأن هذه الأشياء ليست كماليات.. ولكنها ضروريات..

إنها المزاج..

والمزاج هو صميم شخصياتنا..

الفلفل كان زمان سعره أغلى من الذهب.. حينما كانت السفن تحمله من الهند وتدور به حول أفريقيا عبر رأس الرجاء الصالح.. وكانت دراهم الفلفل هدايا خطيرة يتبادلها الملوك..

والسبب هو المزاج..

وكان الفلفل مزاجا..

ولا شىء يساوى المزاج.. كما أنه لا شىء يساوى الحرية..

ونحن ندفع كل ما نملك فى سبيل مزاجنا.. كما ندفع عمرنا فى سبيل حريتنا.

المرأة تضحى بعمرها فى انتظار زوج على مزاجها.. فإذا لم تجده.. فإنها قد تضحى بشرفها لتحصل عليه رجلا لا زوجا..

إنه المزاج..

نابليون خرب الدنيا.. لأن الحرب كانت مزاجه..

وقد دفعنا جميعا ثمن هذا الأفيون النابليونى.. ودفـع هـو أيضا الثمن مضاعفا فى النهاية..

إنه المزاج نقطة ضعفنا جميعا.. لأنه الثغرة التى يدخل منها الاغراء ولا يحرسها العقل.. ولايجدى فيها العقل.. ولهذا نهـانا القرآن عن الهوى والمزاج.

المرأة التى تدخل إلى من بوابة مزاجى تصيبنى فى مقتـل.. تصرعنى..

اللهم اكفنى شر نزوات مزاجى.. أما نزوات عقلى فأنا كفيل بها.

خنزير طيب جدا

الغرور دائما هو القاعدة فى هذا الزمان..

كل واحد يعتقد فى قرارة نفسه أنه رجل صالح وليس أقرب منه إلى الله، وربما زاد على ذلك بأنه ضحية لهذا العصر الشرير وأنه مظلوم ومجنى عليه أكل الجميع حقه وهضموا وجوده وأخذوا مكانه.. وأنه فى القاع بينما يجب أن يكون فى القمة وفى المؤخرة بينما وضعه الصحيح هو المقدمة.. وكل هذا لأنه طيب وابن حلال وحسن النية يعامل الله ولا يعامل الناس ويسابق فى فعل الخيرات..

وربما كان هذا المتكلم إيراده الشهرى ألف جنيه، وعلى بابه عربة ملاكى. ولكنه سوف يسارع فيقول لك.. إنه يحمدالله على هذه الفيات الكحيانة ولا يفكر فى اقتناء شفروليه مثل غيره..

وإنه يشكر الله على مرتبه ويقنع بدخله فلا يمد يده إلى مال عام ولا يمس الحرام وأعوذ بالله من الحرام وأكل الحرام ثم يقبل يده ظهرا لبطن على أن الله خلقه نقى القلب حى الضمير عفيف اليد.. وأن الحياة بالطيب أحسن فلا شىء يدوم فى هذه الدنيا غير الأعمال الطيبة..

وربما يكون من الطريف جدا أن نقرأ على هذا الرجل الطيب الذى هو كل الناس، فكل الناس فى هذا الزمان يظنون أنهم طيبون جدا.. أقول ربما يكون من الطريف أن نقرأ بضعة سطور من كتاب الغزالى .. إحياء علوم الدين.. عن طباع الناس الصالحين.. وماذا كانوا يفعلون .. وكيف كانوا يعيشون. لنعرف أين مكانه فى درجات الصلاح.

يقول الغزالى عن المتصوف الصالح(ابو سليمان الدارانى)

كان أبو سليمان يقول إن الملح، شهوة وترف مذموم، لأنه زيادة على الخبز وكل ما زاد على الخبز فهو شهوة.. ويروى عنه أنه اشتهى ذات مساء رغيفا ساخنا بملح فلما جاءوه به عض منه عضة ثم طرحه وشرع يبكى ويغمغم بين دموعه.. عجلت إلى شهوتى بعد طول المجاهدة واشقوتى.. التوبة.. التوبة.. ومن ذلك اليوم لم يره أحد يمس الملح قط..

وعاش المسيح بلازوجة وبلاولد وبلا بيت وبلا فراش لا يملك

إلا ثوبا واحدا وكان يقول لأصحابه لا تحملوا جرابا للزاد.. وكان شعاره خبزنا كفافنا كل يوم..

ويبدو أن العالم تغير تغيرا كبيرا جدا منذ أيام الغزالى.. فها هو ديجول يقول فى إحدى خطبه للشعب الفرنسى المسيحى.. لا أفهم كيف أحكم شعبا يصنع مائة وستة وثلاثين صنفا من الجبن.

وهنا فى قلب القاهرة وفى أفقر مخبز سوف تعجب من عدد الأصناف التى تخرج من القمح وحده.. الكعك والتورتة والجاتوه والباتون ساليه والكرواسون والبسكوت والرقاق والفطير والبيتى فور والمكرونة.. وأم على والسميط. والخشاف والكسكسى وسد الحنك والعصيدة والعيش البلدى والعيش الشامى والعيش الأسود والعيش الأبيض والقراقيش.. بل إن المكرونة وحدها يصنع منها ألف صنف..

إلى هذه الدرجة ينشغل هذا الانسان الطيب ببطنه.. وينفق الوقت فى التصنيف والتأليف ليشبع شهوة لن تشبع أبدا..

وإنه لامر طبيعى جدا أن الذى يأكل مائة وستة وثلاثين صنفا من الجبن لا يمكن بداهة أن يقنع بزوجة واحدة، ولا بد أن يحاول أن يذوق زوجة جاره وزوجة صاحبه، ويصنف لنفسه مائدة من ألف صنف.. وحينما يكتفى بعشر خليلات سوف يعتقد

أنه طيب جدا وشديد الزهد فى الدنيا، ومن أهل الصلاح والفلاح..

وبصرف النظر عن حكم الدين مسيحيا أو إسلاميا على مثل هذا الرجل، فإن حكم الحضارة وحكم العقل أن مثل هذا الانسان ساقط وأنه مستهلك يأخذ ولا يعطى ولن يجد الوقت ليعطى حتى ولو فكر فى أى عطاء .. لأن أى إنتاج أو عطاء سوف يحتاج إلى الوقت والتفرغ وجمع الهمة وتركيز الذهن وانقطاع القلب.. ومثل هذا الانسان بين مائة وستة وثلاثين صنفا من الجبن وألف ابتكار من ابتكارات المطاحن والمخابز وألف امرأة وألف مستحضر من مستحضرات كريستيان ديوار وعشرات الأفلام والسهرات الهلس كل ليلة وعشرات البرامج التليفزيونية. مثل هذا الانسان لن يبقى منه خير لنفسه ولا للآخرين..

هذا الانسان قتل نفسه مع سبق الاصرار والعمد والترصد.. وآثر الموت السريع اللذيذ محترقا بشهوته..

إنه مرتكب لجريمة تبديد.. تبديد للحياة..

ولكن التبديد هذه المرة تبديد كبير. إنه تبديد للحضارة والتاريخ.. إنه تبديد فردى وتبديد عائلى وتبديد اجتماعى..

الجوع.. والنهم. والشره.. والشبق. لم يبق للانسان عقل

ليفكر أو يتأمل فى أى شىء، فهو يأكل حتى يشبع ويشرب حتى الانفجار ثم يتمدد كثور ليصحوا سعرانا من جديد..

وكلما نام السعار وفتر الاوار أيقظته الفاترينات والاعلانات والأفيشات وأقراص فتح الشهية وحبوب الهضم وحقن القرود التى تعيد الشيخ إلى شبابه.

ونتيجة الشبع والنوم هى البلادة ثم القسوة.. فنرى ذلك الخنزير الآدمى الشبعان يمر إلى جوار الجوعان العريان فلا يشعر به، لأنه مشغول بما يتجدد من شهواته كل لحظة..

ومع ذلك فهو يربت بيده على بطنه الممتلئة ويشعر بالرضا عن نفسه، وبأنه طيب وصالح ولم يؤذ أحدا وربما زار الكنيسة فى الأعياد ووضع قرشا فى صندوق النذور وربما صام رمضان وأكل فيه أكثر من كل شهر وتمتع فيه بتصانيف جديدة مثل اللوز والجوز والقمر الدين والكنافة والقطايف والمشمشية.. بل إن نفس هذه العقلية هى التى حولت شهر الصيام إلى شهر أكل..

وإحصائية بسيطة يمكن أن تثبت لنا أن استهلاك اللحوم فى شهر الصوم يتضاعف كما يتضاعف استهلاك الطرشى والمخللات لتساعد على البلع والزلط واللهط.

ونتيجة هذا الزلط واللهط والتسمين والتزغيط المستمر هى

أرطال زيادة من الشحم واللحم وأمراض كالنقرس وضغط الدم والسكر والذبحة والكلية والكبد والمصران الغليظ ثم تسويس الأسنان المبكر من فرط لين الأطعمة..

ولكن كما قلت هذا الخنزير طيب جدا، وكلما أصابته نوبة الذبحة قال ــ يارب.. يالطيف.. رحمتك.. سترك.. وربما رسم الصليب وتمتم.. أبانا الذى فى السموات.. أو صلى ركعتين.. أو وزع صينية الكنافة التى لن يأكلها حسنة على البوابين..

ولأن هذا العصر هو عصر خنازير طيبين من هذا النوع فنحن نرى فيه الناس تموت من الجوع فى بلد مثل الهند، ويموت من الشبع الكثرة الكثيرة من البلاد الغنية.. دون أن يحرك أحد أصبعا. كما نرى الجهل لدرجة الأمية الكاملة، والعلم لدرجة الصعود إلى القمر وإطلاق الصواريخ فى مدارات فى الفضاء.. دون أن يتحرك العلم ليعطى الجهل أو يتحرك الشبع ليشبع الجوع.. بل قد يتحد الشبعانون ليقاتلوا الجياع لأن الشبعانين عندهم وفرة السلاح كما أن عندهم وفرة الخبز.. والجياع ليس عندهم شىء..

لكن كما قلت هذا الانسان الخنزير طيب جدا.. وهو يعتقد أن الله طيب جدا مثله ولهذا فسوف يدخل كل الناس الجنة.. وهو يقول لك.. هل من المعقول أن يضع الله رأسه برأسنا ويحاسبنا على كلام قلناه وأفعال فعلناها. ونحن بالنسبة لله

ولعظمة الله كالنمل أو ذرات التـراب أو ذرات الهبـاء.. غيـر معقول.. إن الله كبير جدا.. أكبر من أن يعذبنا، وهو يتصور أن هذه الثقة بالله نوع من الايمان الرفيع.. وينسى أنه بهذا التصور الأبله يطالب الله بالظلم وبأن يسـوى بيـن الأسـود والأبيض ويجعل الظالم كالمظلوم والقاتل كالقتيل فى قوانينه..

ولو أنه درس القليل من الكيمياء والطبيعة لعلم أن قوانين الله لاتسوى بين الذرات وأن كل شىء يتحرك بإحكام من الألكترون الصغير إلى أجرام السماوات العظيمة فى توافق مـع المنـطق العلمى الدقيق.. وأن الذرات تتحد وتتفاعل مع بعضها حسـب أوزانها الذرية.. مع أن هذه الأوزان مقادير ضئيلة جـدا جـدا جدا..

وإنه باستقراء عجائب هذا الكون ودقـة سـيرها وإحـكام تطورها. فإن العقل ليصرخ.. بين يدى هذه القدرة.. لا يمكن أن يفلت ظالم.. ولا أن يهرب قاتل أخطأته قوانين الأرض..

يقول هذا عقل تأمل وأدمن التأمل..

أما العقول التى أصابها الشبع والخمول وخيمت عليها بلادة الخنازير.. فإنها تتصور آخرة خنزيرية أو لا تتصور بعثا وآخرة على الاطلاق .. ويقول الواحد فى بلادة شديدة.. وهل يمكن أن يبعث ميت من عدم.. وهم يتصورون أن ينقل جراح مثل الدكتور

برنار قلب رجل ميت ويبعثه حيا فى صدر رجل آخر .. ولا يتصورون من الذى خلق الدكتور برنار ومن الذى خلق الدنيا كلها معجزة أكبر..

ولكن فى عصر الكريم شانتيه أصبح التفكير الدينى موضة قديمة..

والعلوم الوضعية والعقول الألكترونية أصبحت هى الأصنام العصرية وهذا نتيجة للكسل والغرور.

الانسان الشبعان أكسل من أن يعيد نظرا. وهو قد حول جميع حساباته للآلات الحاسبة والأمخاخ الألكترونية وجلس يرتشف الآيس كريم صودا فى تلذذ.

لا وقت عنده ليسأل نفسه تلك الأسئلة المتعبة.. من أين جئت.. وإلى أين أذهب .. وماذا بعد الموت.. وماذا قبل الميلاد.. فهذه كلها متاهات غيبية.. وأمامه ليلة عامرة بالمسرات لا ينبغى أن تضاع فى أسئلة تجلب الصداع..

وبين الموائد الشهية والليالى الحمراء القرمزية تقضى الخنازير أعمارها فإذا بقى وقت فإنها تتناطح بالرءوس أو بالحوافر أو بالقنابل الذرية حتى الموت.

يموت الشبعان ليشبع أكثر وليجوع الجائع أكثر..

وينتهى العمر دون جدوى.. ينتهى بجريمة.

وتغرب شمس الانسان دون أن يسأل نفسه سـؤالا واحـدا بسيطا.. لماذا أنا هنا..

لغز الصحة والمرض

مانحبه فى البيت والغرفة والفراش والمدفأة، وما نخلده بالأشعار والأغانى وما نشتاق إليه فى ليالى الغربة.. ليس هو البيت ولا الغرفة ولا الفراش ولا المدفأة، وإنما مشاعرنا وذكرياتنا التى نسجت نفسها حول هذه الجمادات وبعثت فيها نبض الحياة وجعلت منها مخلوقات تحب وتفتقد.

إننا نحب عرق ايدينا فى مفرش الكانفاه.. وعطر أنفاسنا على الستائر.. ورائحة تبغنا على الوسائد القديمة.

وحينما نحتفل بالماضى نحن فى الواقع نحتفل بالحاضر دون أن ندرى.. فهذه اللحظات الماضية التى أحببناها ظللنا نجرجرها معنا كل يوم فأصبحت معنا حاضرا مستمرا، إنه الحب الذى خلق من الجمادات أحياء.

والحب جعل من الماضى حاضرا شاخصا ماثلا فى الشعور.

وإذا كنا نقرأ أن المسيح كان يشفى بالحب.. فليس فيما نقرأ مبالغة.. بل هى حقيقة علمية..

فالحقد والكراهية والحسد والبغضاء ترفع ضغط الدم، وتحدث جفافا واضطرابات خطيرة فى الغدد الصماء.. وعسر دائم فى الهضم والامتصاص والتمثيل الغذائى .. وأرقا وشرودا..

والنفور والاشمئزاز يؤدى إلى أمراض الحساسية..

والحساسية ذاتها نوع من أنواع النفور.. نفور الجسم من مواد غريبة عليه..

واليأس يؤدى إلى انخفاض الكورتيزون فى الدم..

والغضب يؤدى إلى ارتفاع الادرينالين والثيروكسين فى الدم بنسب كبيرة، وإذا استسلم الانسان لزوابع الغضب والقلق والأرق واليأس أصبح فريسة سهلة لقرحة المعدة والسكر وتقلص القولون وأمراض الغدة الدرقية والذبحة، وهى أمراض لا علاج لها إلا المحبة والتفاؤل والتسامح وطيبة القلب..

جرب ألا تشمت ولا تكره ولا تحقد ولا تحسد ولا تيأس ولا تتشاءم، وسوف تلمس بنفسك النتيجة المذهلة.. سوف ترى أنك يمكن أن تشفى من أمراضك بالفعل .. إنها تجربة شاقة

سوف تحتاج منك إلى مجاهدات مستمرة ودائبة مع النفس ربما لمدى سنين وسنين..

وسوف يستلزم ذلك أن تظل فى حالة حرب معلنة مع أنـانيتك وطمعك.. حرب يشترك فيها العقل والعـزم والايمـان والاصرار والصبر والمثابرة والالهام.

وأشق الحروب هى حرب الانسان مع نفسه.

وما أكثر القواد الذين استطاعوا أن يحكموا شعوبهم وعجزوا عن حكم أنفسهم وما أسهل أن تسوس الجيوش، وما أصعب أن تسوس نفسك..

ولا يكفى أن تقول.. من الغد لن أبغض أحـدا ولن أحسـد أحدا. وتظن بذلك أن المشكلة انتهت .. فقليل من الصراحة مع نفسك سوف تكشف لك أنك تـكذب وأنـك تقـول بلســانك ما لا تحس بقلبك..

والانتصار على الأنانية ليس معركة يوم وإنما معـركة عمـر وحياة..

ولكن ثمار المحبة تستحق كفاح العمر..

وإذا قالوا لك إن معجزة الحب تسـتطيع أن تشـفى مـن الأمراض فما يقولونه يمكن أن يكون علميا..

فبالحب يحل الانسجام والنظام فى الجسد والروح، وما الصحة إلا حالة الانسجام التام والنظام فى الجسد، وإذا كان الحب لم يشف أحدا إلى الآن .. فلأننا لم نتعلم بعد كيف نحب..

الرجل يحب امرأة وينتحر من أجلها ويقتل ويختلس ويرتشى ويرتكب جريمة ويظن أن هذا هو منتهى الحب وهو لم يدرك بعد أن الحب هو أن يحب الكل.. أن ينظر إلى كل طفل على أنه ابنه وكل كهل على أنه أبوه.. وأن يكون حبه لامرأته سببا يحب من أجله العالم كله ويأخذه بالحضن.

وبالنسبة لعالم اليوم. عالم فيتنام والقنبلة الذرية والصاروخ والدبابة والدولار.. الكلام فى هذا اللون من الحب هذيان.. ويوجا.. وتخريف..

ولهذا فالمرض فى هذا العالم فريضة.. والعذاب ضريبة واجبة لهذه القلوب التى تطفح بالكراهية.. لا بد أن نمرض لأن العالم مريض وعلاقاته مريضة..

والذبحة والجلطة والضغط والربو أمراض نفسية فى حقيقتها..

أمراض إنسان يطحن أضراسه غيظا ويعض على نواجذه ندما ويستجدى النوم بالمنومات.. ولا يستطيع النوم لأن أطماعه تحاصره.. ولأنه جوعان مهما شبع.. فقير مهما اغتنى.

إنسان يفرق بين أبنائه لأن بعضهم أبيض وبعضهم أسود .. إنسان يتسلق على إنسان ويتسلق عليه إنسان فى مجتمع طاقته المحركة صراع الطبقات..

وفى مثل هذا العالم الحب مستحيل لأن كل واحد يضع أصبعه على الزناد..

كل واحد فى حالة توتر..

وهذا التقلص المستمر هو المرض.. وهو الذى يظهر فى ألف مرض ومرض.. من تسويس الأسنان إلى السرطان..

وإذا قالوا لك إن سبب المرض ميكروب، قل لهم لماذا لا نمرض جميعا بالسل مع أننا نستنشق كلنا ميكروب السل فى التراب كل يوم ويدخل إلى رئاتنا فى مساواة.. لأن بعضنا يقاوم وبعضنا لا يقاوم..

وما هى المقاومة سوى أن تكون الحالة السوية للجسم ..

حالة العمل فى انسجام بين كل الخلايا والغدد والأعصاب وهى حالة ترتد فى النهاية إلى صورة من صور الائتلاف الكامل بين النفس والجسد ..

ولهذا يمكن أن يكون مرض السل مرضًا نفسيًا..

كما يمكن أن تعاودك الانفلوانزا بكثرة لأسباب نفسية..

مع أن العلم يؤكد أن سبب السل هو ميكروب «باسيل كوخ» وسبب الانفلوانزا هو «الفيروس».. ولكنها ليست أسبابا قاطعة لأن العدوى بها لا تحدث المرض إلا بشرط وجود القابلية.. والقابلية حالة نفسية كما أنها حالة جسدية..

وأمراض كالاكزيما أمكن إحداثها بالايحاء أثناء التنويم المغنطيسى.

بل إن التهابا كالتهاب الحرق فى الجلد يمكن إحداثه بنفس الطريقة بدون نار وبدون مادة كاوية، لأن النفس يمكن أن تحرق كالنار وتكوى كالمادة الكاوية..

ولأن النفس يمكن أن تكون أخبث من الميكروب..

والحالة النفسية يمكن أن تكون سببا فى الحمى والصداع والضغط والسكر والروماتزم والسرطان..

وإذا قرأت أن الحب يشفى وأن المسيح كان يشفى بالحب.. فتأكد أنك تقرأ حقيقة علمية..

شىء غير اللذة الجنسية

الحب لون نادر ساحر من ألوان الاتحاد..

ما تقوله لنا الكتب الجنسية الرخيصة من أن الحب هو توفيق اثنين فى أن يصلا بعلاقتهما إلى ذروة الاشباع الجنسى.. كلام غير صحيح.. فالاشباع الجنسى يمكن تحقيقه بأيسر السبل بدون حب وبدون تفكير وبدون عناء يذكر.. وهو أحيانا يتم فى لقاء المصادفات.. وفى العلاقات العابرة.. التى لا تخلف شيئا فى الذهن ولا تترك أثرا فى الخيال .. وأحيانا يتم مع وجود الكراهية..

وهو إشباع ينتهى فى أحسن الأحوال إلى حالة من الوخم والخمول والتبلد الذهنى..

وهو إشباع يمكن أن تمنحه أية امرأة مثل الأخرى..

لا يشترط امرأة بعينها.. لأنه اتصال أخرس فى الظلام.. يمكن أن يحركه الحر وتذكيه لزوجة الأجساد .. بأكثر وأكفأ مما يحركه الحب..

وحينما يشتاق الرجل إلى هذا الاشباع، فهو فى العادة يشتاق إلى الاشباع نفسه لا إلى إمرأة بالذات.. وهو لهذا يحاول أن يحقق له ظروفه التى يواتيه فيها، فهو يسعى إلى الخلوة ويتعاطى المخدر إذا كان مدمنا، أو يشرب إذا كان سكيرا أو ينزل على الأكل إذا كان أكولا.. ثم بعد ذلك أية امرأة مثل الأخرى ما دامت عندها المواصفات الجسدية المطلوبة.. وما دام هو فى حالة لياقة..

وكلما كان الاثنان فى حالة غباء وتبلد فالمتعة عادة تطول .. وكلما استطاع الرجل أن ينسى أن معه امرأة تشاركه فراشه كلما كان أكفأ فى أداء وظيفته.. فلا عجلة.. ولا توتر .. ولاحتى إحساس..

هل يكون هذا حبا..

أبدا..

برغم كل ما يقال عن الجنس وأهميته فى نظريات علم النفس الحديث.. وبرغم كل ما يقوله فرويد وغير فرويد.. فلا شك أن الحب شىء غير الجنس..

لا أقول هذا لأنى رومانتيكى.. ولكنى أقوله لأنى علمى أنظر

نظرة علمية إلى الانسان.. وأرى أن الانسان كائن شديد التعقيد لا يمكن النظر إليه باعتباره جسدا فقط، ووظائف عضوية فقط وأحشاء فقط وغرائز فقط..

ومن ينظر إلى الانسان هذه النظرة المحدودة لا يكون علميا.. وهو فى الواقع يقتل الانسان بهذه النظرة ويحوله إلى رمة وجيفة.. وبالتالى لا يصل فيه إلى حكم صادق..

الحب أدواته الذكاء والحس المرهف والعاطفة المتوقدة والبصيرة الشفافة والفطرة النقية والوجدان المتألق.. ولا يمكن أن تكتمل لذاته فى جو المخدرات والغباء والبلادة الذهنية..

والحب لا يذكيه الحر ولا تثيره لزوجة العرق.. ولا يمكن أن تحل فيه امرأة محل أخرى لأنه ليس علاقة الرجولة بالأنوثة.. وأنما هو علاقة رجل معين بامرأة معينة..

والحب لا شبع فيه لأنه ليس خطة وفخا إلى لقاء جسدى عابر ولكنه تجاوز دائم للواقع واحتمالاته وتخط لحاجز الجسد بحثا وراء لقاء عميق واتحاد فى الجوهر.. وهو اتحاد مستحيل.. فالاثنان لا مفر من أن يظلا اثنين ولن يصبحا واحدا أبدا.. ولهذا فالحب مقضى عليه بالتشوف والنزوع والالتياع والجوع بلا شبع..

والحب لا يذكيه إشباع الجنس.. لأن الحب هو المانح الذى

يمنح لذة الجنس، وهو الذى يجعل هذه اللـذة قـريبة ميسرة تحققها لمسة يدين ولقاء نظرتين.. بينما يظل الجنس بذاته لذة خاوية لا تستطيع أن تمنح حبا..

والحب الحقيقى لا يطفئه حرمان.. ولا يقتله فراق.. ولا تقضى عليه أية محاولة للهرب منه.. لأن الطرف الآخر يظل شاخصا فى الوجدان..

ألم أقل إنه لون غريب من ألوان الاتحاد.. كما تتحد العناصر فى الطبيعة فينشأ عنها مركبات لا يمكن تفريقها إلى عناصرها إلا بالنار والكهرباء..

كما يذوب السكر فى الماء فلا يمكن فصله إلا بالحرارة والتبخير.. وحتى البللورات التى تنفصل فى تلك الحالة تظل محتفظة بالماء فى داخلها على هيئة «سكر نبات»..

وأحيانا يكون الاتحاد وثيقا عميقا مثل اتحاد مكونات الذرة.. إذا تيسرت القوة الكافية لتفريقها انفجرت وأدت إلى قنبلة ذرية..

والحب بالمثل اتحاد شديد العمق يؤدى التفريق فيه إلى سلسلة من انفجارات العذاب والألم قد تستمر حتى الموت.. وقد تنتهى بتغير الشخصية تماما وتحولها.. كما يتحول الراديوم بعد تفجر الاشعاع بداخله إلى رصاص..

أى لون من ألوان الاتحاد هو!؟..

إنه قطعا ليس اتحادا بالجسد..

وليس هوى نفسين..

ولا تلاؤم مزاجين..

ولا تفاهم عقليتين..

ولا هو العثور على فارس الأحلام..

ولا هو ارتياح الفطرة إلى فطرة أخرى تعاشرها..

إنه يحتوى على كل هذا بالطبع.. ولكنه يحتوى على ما هو أكثر..

وما هو أهم..

على وحدة أعمق من كل هذه الاتحادات الواضحة المفهومة..

وحدة أصيلة كالقدر والضرورة والمصير تجمع الاثنين عبر كل حدود الممكن والواقع، ورغم حوائل الزمان والمكان.. وحدة لا يجدى فيها فراق ولا تبترها قطيعة.. فهى تبدو أحيانا كوحدة تاريخية قديمة.. إذا كان من الممكن أن يكون لكل نفس من هذه النفوس تاريخ قديم قبل أن تولد.. فكل منهما يشعر أنه كان يعرف الآخر منذ زمن وأنه ليس غريبا عليه..

كل منهما يتعرف على الآخر كأنما يتعرف على شخص قديم حميم..

وحدة غامضة لم يجد لها العلم اسما..

ولا مانع من أن نستعير لهـا التسـمية القـديمة «الـوحدة الروحية»..

تسمية أكثر غموضا.. ولكن ما باليد حيلة.. ليس عندنا غيـر هذه الكلمة الصوفية القديمة «الروح» نسمى بها ما نشـعر بـه ولا نعرفه فى داخلنا..

وإذا كان المفكرون الماديون لا يعترفون بهذه الكلمة.. فهذا لن يحل الاشكال بالنسبة لهم.. فسنظل نسألهم اسما لما نشعر به ولا نعرفه فى داخلنا.. وسيظل هنـاك شـىء وراء مـدركاتنا الحسية.. شىء حقيقى لا وهمى.. يحتاج إلى تفسير..

ولهذا يبدو دائما فى نهاية التفكير أن الحب كالفـن والـدين والحرية تقف كلها على أبواب الميتافيزيقا.. وأنها ظواهر مختلفة لما يخفى وراء مدركاتنا الحسية..

ولا نقصد هنا حب نواصى عماد الدين والأمريكين وكوبـرى قصر النيل بعد الساعة الواحدة.. ولا حـب سـن السـتاشر.. ولا حب آخر السهرة بعد أن ينتهى برنامج الـكباريهات ويبـدأ نشاط البارات.. ولا حب «أبو عيون جريئة».. ولاحب كازانـوفا..

فبعض هذه الألوان من الحب مرض وبعضها فضول وبعضها فراغ وثراء ودلع وفخفخة وبعضها غرور وحب للنفس أكثر مما هو حب للآخرين وبعضها مصالح وصفقات وأغلبها نزوات جنسية عابرة.

أما حبنا الذى نقصده فهو ذلك الحب النادر الذى ينمو فى علاقات قليلة ويعيش ويتحدى النسيان ويضفى النبل والجلال على أبطاله ويصبح حكايات تردد باحترام وتأثر..

ومثل هذا الحب نادر فى زماننا ندرة الصبار المكتنز بالماء فى الصحارى الجرداء.. ولكنه موجود على أى حال .. شكرا لله..

أذكر أنى قرأت فى خبر طريف من النمسا أن شابا أدخل رأسه بين أسوار الحديقة ليقبل حبيبته ولما انتهى من قبلته حاول أن يخرج رأسه فلم يستطع.. واستدعى الأمر الاستعانة ببوليس النجدة..

وفى غراميات هذا العصر الذرى يحدث كثيرا أن يدخل شاب رأسه فى قفص الحب ثم لا يعدم وسيلة لا خراج رأسه والافلات بجلده كلما أراد دون الحاجة إلى بوليس النجدة.. وقد يدخل رأسه ويخرجها عدة مرات فى عدة أقفاص..

ولكن فى حبنا الذى حكينا عنه حيث الحب قدر وضرورة ومصير لا يستطيع العاشق أن يخرج رأسه من قفص الحب إلا بقطعها..

هل منكم من يريد أن يحب حبا حقيقيا.

أعز ما تملك

كانت هذه هى الليلة الأولى التى يلتقيان فيها منفـردين فى مكان.. وكانت تجلس فى اسـترخاء كأنهـا تنـام.. وشـفتاها تهمسان.. فى حلم.. وصوتها يرتجف..

ـ دعنى أحكى لك الأشياء التى لم أقلها لأحد، وأصـارحك بالحقيقة التى لم أواجه بها مخلوقا حتى نفسى.. أنـا إنسـانة جبانة تماما..

لقدعشت ثلاثين سنة على تقليد الناس ومحاكاتهم.. حينمـا كنت فى مدرسة البنات كنـت أعيش علـى خيـالات زميـلاتى وأحلامهن.. كنا نجتمع بالليل فى غرفة النوم؛ وتحكى كل واحدة مغامراتها، وتصف الولد الذى تحبه، وأجلس أنا أستمع إليهـن وأهيم بكل هؤلاء الأولاد وأتغذى على هذه الخيالات وأسـتعير

هذه الأحلام لأملأ بها وحدتى وفراشى.. فلم تكن لى مغامرة أحكيها مثل بقية البنات.. وكانت الناظرة تقول عنى إنى فتاة طاهرة الذيل ومستقيمة.. ولكنى كنت أعلم أنى لست طاهرة كما تتصور الناظرة.. ولكنى ملوثة.. فكرى ملوث.. وأحلامى ملوثة.. وجسمى ملوث بالرغبات.. التى لا أجرؤ على تحقيقها..

وحينما كنت أقف أمام المرآة وأسمع صوت أمى تقول لى. أنت مثل الولد.. لا ينقصك إلا الجاكتة والبنطلون لتكونى ولدا.. كنت أبعد عينى عن المرآة .. وأرتدى ثيابى بسرعة..

وأهرول إلى المدرسة.. وكنت طوال الطريق أهرول وأجرى وأسرع فى خطواتى كأن هناك شرطيا يجرى خلفى.. كان يخيل إلى أن الناس ينظرون إلى ظهرى وإلى كتفى العريضتين وشعرى القصير كشعر الولد.. وكنت أجرى هاربة من نظراتهم..

وكانت مشيتى السريعة الجافة تضفى على مظهرا آخر من مظاهر الجد والاستقامة..

وكنت أسمع جيرانى يقولون.. هذه البنت المؤدبة.. انظروا كيف تمشى كما يمشى الرجل.. لا أحد يجرؤ على معاكستها..

والحق أنى كنت أموت شوقا إلى معاكسة.

وحينما فكرت ناظرة المدرسة فى إنشاء فرق للنشاط المدرسى لم يخطر بذهنها أى فتاة لتكون رئيسة فريق الرياضة البدنية

سوى.. فاطمة.. بالاسم..

وهكذا أصبحت رئيسة فرقة الرياضة البدنية مع أنى كنت أذوب شوقا لأكون فى فرقة الرقص أو الغناء أو الموسيقى.

ولكن .. كيف أجرؤ على إعلان هذه الرغبة.. وأنا فاطمة.. البنت المؤدبة.. الجادة.. التى تسير كما يسير الرجل.. وهكذا أصبحت بطلة فى السباحة.. أسافر وأكسب بطولات.. وأفوز بكئوس برونزية وفضية.

ولكن فى أعماقى.. فى أعمق أعماقى.. كانت هناك حقيقة أخرى..

كنت امرأة .. أنثى.. أذوب شوقا إلى لمسة غزل وأتحرق إلى نظرة فيها رغبة..

كنت أتمنى أن أشعر بطمع رجل فى أنوثتى.

ولكننى كنت أجرى وراء مستحيل..

كان الاحترام يحاصرنى أينما ذهبت والتقدير والاجلال والاعجاب ببطولتى يطالعنى فى كل عين.. وكان فى مظهرى شىء يقتل رغبة الرجال ويخرس ألسنتهم ويجبرهم على الوقوف أمامى فى تهيب وتحفظ..

وكان حضورى فى مكان ينشر حولى هالة من الجد، فيكف

الرجال عن الكلام المبتذل ويصلح كل واحد من مظهره ويجلس مهذبا.. ويقدمنى المضيف إلى ضيوفه فى أدب.. مدام فاطمة المشرفة الرياضية فى النادى.. ورئيسة فريق السباحة.. والبطلة الحائزة على كذا وكذا.. والمفتشة فى قسم التربية البدنية فى الوزارة..

والحقيقة أننى لم أكن أشعر بأى سعادة أو فخر لهذا التقديم.. وإنما كنت أشعر بالغيظ.. وكنت أشعر بأنفاسى تضيق من الصمت الذى يخيم على الجماعة.. وبأنى أختنق فى هذه الهالة من الاحترام التى تحوطنى..

كنت أشعر أنى سجينة فى هذه الهالة.. وأن فى داخلى امرأة أخرى .. لم تكتب لها الحياة أبدا..

وكنت أحيانا أقف أمام المرآة.. وأمشى مثل مارلين مونرو.. وأهز أرداف..

وأحيانا كنت أتأمل نفسى وأنا أغتسل فى الحمام وأتحسس صدرى وأنا أكاد أبكى لماذا لا يعاملنى الناس على أنى امرأة..

وحينما خطبنى زوجى وقال لى يوم الخطوبة لقد اخترتك.. لأنك مؤدبة.. وجادة ومحترمة.. ومهيبة.. أحسست أنه صفعنى.. لماذا لم يقل: إنه اختارنى لأنى جميلة وجذابة ومثيرة..

وانهار أملى الوحيد الباقى.. أن أجد بيتا أتنفس فيه.. بيتا

غير بيت أبى وغير النادى.. وغير مجتمع الأصدقاء الذى أموت فيه وتموت حقيقتى منذ ثلاثين عاما..

ودخلت بيت زوجى لأعيش كما أعيش فى النادى.. جادة .. مؤدبة.. محترمة..

وفى الفراش.. حينما كنت أختلى بزوجى فى المساء بعد أن يذهب كل الناس.. وينتهى النهار بصخبه وضجيجه.. كان زوجى يأخذنى بين ذراعيه فى احترام.. ويقبلنى فى هيبة..

وكنت أشعر أن على أن أقوم بدور المشرفة.. والمفتشة.. والأستاذة.. حتى فى الفراش.. وكانت.. وكانت أنفاسى تضيق .. وكان صدرى يضيق.

وظلت علاقتنا باردة منتظمة لا طعم لها..

وظللت أشعر فى أعماقى أنى مازلت بكرا. لم أدخل دنيا.. وانتهى زواجى الفاشل بالطلاق..

ولم يدخل حياتى رجل..

ولم أشعر برجولة رجل حتى التقيت بك.. ووقفت تحدثنى وتختلس النظر إلى صدرى.. فى اشتهاء.

وشعرت يومها بالخجل وغطيت كتفى بالشال.. وكانت هذه هى المرة الأولى فى حياتى التى أغطى فيها جسمى من نظرة

رجل.. فقد تعودت ألا يثير جسمى العارى شيئا فى عيون الرجال..

وفى المساء حينما كنت توصلنى إلى البيت وتقول لى: إن صدرى ليس صدر سباحة وإنما هو صدر امرأة.. وإن جسمى المتفجر هو جسم أنثى.. وإننى أثيرك.. كنت أرتجف تحت وقع هذه الكلمات، كنت أرتجف من الفرح.

هذه أنا..

هذه حقيقتى تجد صداها فى عينى رجل..

أخيرا.. وجدتك..

وأحببتك .. وعبدتك..

وشعرت أنك رجلى..

إن أعز ما تملك المرأة ليس هو جسدها أبدا.

أعز ما تملك المرأة هى ذات نفسها وحقيقتها وروحها..

وقد ظلت ذات نفسى بكرا لم يدخلها أحد.. حتى دخلتها أنت.. ودخلت دنياى..

كنت أسير محجبة.. لم يحدث أن رفعت الحجاب طيلة ثلاثين عاما.. حتى أمام نفسى.. كنت أتغطى.. وأخفى وجهى.. وأخفى

رغبتى.. وأكذب.. وأمثل حتى مزقت أنت هذه الـكذبة بنـظرة واحدة من عينيك الوقحتين.. وأيقظت حقيقتى من مرقدها..

وهذه أنا أتكلم كما لم أتكلم فى أى يوم من أيام حياتى.. من كان يظن أنى سوف أنطق بهذه الكلمات.. وأمام رجل..

إنها لحقيقة مضحكة.. ولكنى أشعر..

أشعر .. أنى اليوم واليوم فقط.. فقدت أعز ما أملك...

اليوم فقط أدخلت رجلا فى دنياى..

كم أتمنى لو يعلم الأزواج .. أن اقتحام جسد امرأة فى ليلة زفاف.. ليس شيئا.. ليس شيئا بالمرة.. وأن المهم أن يـدخلوا إلى نفسها.. أولا.

حينما يقع المحظور

قتل طفل «١١سنة» زميله «١٠سنوات» حرقا بسبب الكرة الشراب. كان الأطفال يلعبون فى حدائق القبة.. اختلف الطفل محمود ابراهيم مع منافسه فى اللعب عبد الله حسن حول «جول».. قال الأول إن الكرة دخلت الجول.. وعارض الثانى.. فتماسكا وتصادف أن كان أحد الخفراء يشعل النار فى كومة كبيرة من الورق المهمل.. دفع محمود خصمه عبد الله فوقع فى النار.. أمسكت النار بملابسه وجسمه.. حاول الأهالى إنقاذه.. نقلته الاسعاف إلى مستشفى الدمرداش حيث توفى متأثرا بحروقه.. تولى التحقيق أحمد فوزى إسماعيل وكيل نيابة أحداث القاهرة..

* * *

جريمة بشعة وقعت بحى الساحل.. حلاق يقتل صاحب مطعم لأنه رفض إعطاءه كوبا من الماء لابن أخته.. القاتل يعاتب صاحب المطعم وتتحول المعاتبة إلى مشادة يستل فيها سكينا ويذبحه ثم يسحبه إلى الشارع ليطعنه عشر طعنات ثم يجرى إلى قسم الساحل ليعترف بجريمته.. وهذا تفصيل ما حدث..

فى الساعة الحادية عشرة من الصباح اقتحم شاب «٢٢سنة »مكتب المقدم حسن المهيرى مأمور قسم الساحل وكان أصبعا سبابته وإبهامه يقطران بالدم.. ورقبته وصدره مصابين بحروق بينما يمسك فى يده اليمنى بسكين طويل نصلها ٣٥سنتيمترا وملوثة بالدم.. وبلا مقدمات صاح فى المأمور قائلا.. اخفينى يافندى.. أنا اسمى أحمد أحمد.. باشتغل حلاق.. ويوسف شديد صاحب المطعم اللى فى الساحل ضربنى فضربته بالسكينة اللى فى إيدى.. المطعم فى شارع عشرة..

وانتقلت المباحث والنيابة إلى مكان الحادث فوجدت صاحب المطعم مذبوحا من رقبته وجثته ممزقة وبها عشر طعنات وقد غمرها الدم..

تبين من التحريات أن للقاتل ابن أخت صبى ترزى يعمل بجوار المطعم.. وأنه تعود أن يأخذ الماء من المطعم.. ومنذ ثلاثة أيام توجه الغلام لطلب كوب ماء فرفض القتيل وطرده.. ووقعت مشاجرة بينه وبين الترزى ثم تصالحا..

وبعد أيام علم القاتل وهو خال الغلام ويعمل حلاقا بما حدث فتوجه إلى المطعم ليعاتب القتيل.. وحضر الأخير بعد ساعة وشاهد الحلاق وابن أخته وصهره وعمال محل الترزى فى انتظاره.. فتوجس شرا وخيل له أنهم يتربصون به للاعتداء عليه وهرب إلى داخل المحل.. فجرى الحلاق خلفه فأمسك القتيل المذعور بإناء به ماء مغلى على مائدة المطعم وقذف به فى وجه الحلاق وأصابه بحروق شديدة.. وجن جنون الحلاق فأمسك بالسكين التى يقطع بها صاحب المطعم اللحوم وجذب القتيل إلى باب المحل وذبحه من رقبته ثم سحب الجثة إلى الشارع وراح يطعنه فى جنون عشر طعنات.. وأصيب القاتل فى سبابته وإبهامه أثناء الجريمة..

ووجه المتهم بالتحريات فقرر أنه لم يكن يقصد قتل صاحب المطعم الذى استثاره.. وشرع فى البكاء.. أمر وكيل النيابة بحبس القاتل على ذمة التحقيق.. كما وجه إليه تهمة القتل العمد مع التربص.. ما زال التحقيق مستمرا.

* * *

هذه عينة من الحوادث التى نقرؤها كل يوم فى صفحة الجرائم.. ويطلها دائما رجل فى حاله.. لا به.. ولا عليه.. تنقض عليه المصيبة فإذا به بين لحظة وأخرى فى الحديد وعلى رأسه دم قتيل.. ومشنقة.. وسجان.

إنه قاتل من حيث لا يعلم..

قاتل وهو صبى فى سن ١١سنة.. أو مثل هذا الحلاق.. رجل بلا سوابق.. ذهب فى مشوار ليعاتب جاره فعاد ملطخا بالدم يلهث من الرعب ويلوذ بالبوليس لينقذه..

* * *

والقارىء يمر على هذه السطور وهو يرتجف.. وفى قلبه رعب بدائى من أنه قد يخرج ذات يوم من بيته ويعود فى الحديد.. أو على نقالة أو لا يعود على الاطلاق.. فالمستقبل مرهون دائما بما يخبئه الغيب.. مرهون بالمقدور..

ولا أحد يستطيع أن يعرف ماذا يخبئة الغيب.. ولا ما يحجبه المقدور..

لا أمان.. ولا ضمان..

كل شىء جائز..

احتمالات الصدفة والاتفاق والقدر لا حدود لها.

وأنا أفكر كثيرا فى أمثال هذه الحوادث.. وأسأل نفسى.. هل احتمالات الصدفة والقدر لا حدود لها فعلا.. وهل يمكن أن ينقلب الانسان فى لحظة إلى قاتل.. ويتصرف كوحش من وحوش الغاب.. هل يمكن أن تجرده الصدفة من أخلاقه وتسوقه إلى ما ليس فى طبيعته..

هل للحوادث صفة الحتمية.. والقهر..

هل يمكن أن تقهر الانسان على ما ليس فى طبعـــه.. أم أن دورها ثانوى.. لا يزيد عن كونها تعطى فرصة لظهور خفايا هذا الطبع وانكشاف خفاياه ومكنوناته .. وأننا فى الحقيقة لا نصادف فى طريق الحياة إلا نفوسنا.. فإذا وقعنــا فى الجــريمة فنحــن مجرمون بالسليقة ولم تفعل الصدف والحوادث أكثر مــن أنهــا دبرت المناسبة لتظهر حقيقتنا.

أنا من هذا الرأى.. أنا أعتقــد أن الانســان أقــوى مــن الحوادث..

وأنه لا شىء مما يحدث فى الخارج يمكن أن تكون له صــفة الحتمية على إرادة الانسان وأننا فى لحظة المأزق.. والــكارثة.. حينما يحدث المحظور لا نقع ولا نتورط.. وإنما نختار.. نختــار حقيقتنا.. ولا تفرض علينا الحوادث مصيرا.. ليس فينا..

إن بذور الاجرام موجودة.. كل ما تفعله الصدفة أنها تعطى الفرصة.. والظروف المناسبة.. لهذه البذور لتورق دما..

القتيل صاحب المطعم فى الحــادث.. قتلــه خــوفه وذعــره وتصوره لمطاردة وهمية لا وجود لها وعدوان خيــالى يتعقبــه.. والظروف وضعت تحت يده إناء من الماء المغلى ليدافع به عن نفسه لقاء هذا العدوان.. وتهوره عجل بالنتيجة فأمسك بــالاناء وقذف به فى وجه القاتل..

الدوافع المحركة لهذا العمل هى من صميم طبيعة القتيل.. الخوف والذعر والتهور والاندفاع.. وكان من الممكن أن تتحالف هذه الدوافع لتؤدى إلى نفس النتيجة فى أى مكان وفى أى فسحة أخرى من عمر القتيل إذا حدث ولم تقع هذه الجريمة.. وامتد به العمر..

إنه لا بد واقع فى مثل هذه الحماقة.. إن بذورها فيه. ولم تفرض عليه الصدفة شيئًا ليس فى طبعه.. إنها فقط أعطت الفرصة لهذه الطباع لتظهر على أبشع حقيقتها..

وبقية الحوادث تسلسل منطقى.. الوحش الآخر.. الماءالمغلى مصبوب عليه.. وصدره يحترق ووجهه يحترق وغضبه يشتعل والصدفة تضع تحت بصره سكينا مشحوذة. طولها ٣٥سنتيمترا.. لو أن فيه طبيعة الذى يتوقى الشر بالابتعاد عنه لا بتعد بنفسه وآثر السلامة.. ولكن طبيعة الوحش المفترس فى قلبه.. وهى الطبيعة التى دفعته لأن ينقض ويذبح.. ولا يذبح فقط.. وانما يمثل بضحيته بأن يمزقها بعشر طعنات.. فمنذ اللحظة التى ذبح فيها الضحية لم يعد هناك خطر يخشاه على نفسه.. لا شىء يحتم هذه الطعنات العشر.. ولا مبرر من الواقع يدفع للتمثيل بالضحية.. إنما المبرر هو الواقع النفسى الذى يعشش فى قلبه.. إنه ليس رجلا جريحا.. وإنما هو وحش جريح.. إنها لحظة اختيار إذن.. وليست لحظة حتمية.. لحظة اختار فيها الوحش نفسه وأفصح عن طبيعته..

وفى أي ظروف مشابهة كان لابد لهذا الوحش أن يقتل.. وفى المناسبات الكثيرة للعدوان التى لابد تعرض لهـذا الـوحش فى خلال عمره.. بسبب هذا الحادث.. أو بغيـره.. كان لابـد أن يقتل..

إننا نساهم فى خلق الحوادث التى تشكل مصيرنا.. كل واحد تحدث له الحوادث التى على شاكلته.. وعلى شاكلة نفسيته..

والطفلان اللذان يلعبان بالكرة الشراب على مقربة من النـار لا يوجد فرق كبير بينهمـا وبيـن قـائدين عـظيمين مثل «كينيدى» وخروشوف وهما يلعبان بالكرة الأرضية على مقربة من النار الذرية المشتعلة.. وحينما يلقى أحدهما بالآخر فى النار فإنها لن تكون صدفة.. وحينما يلقى البشر حتفهـم فى حـرب فناء.. فإنها لن تكون صدفة..

فهناك فى صميم القلوب تلك البذور.. بذور الشر.. والحقـد.. والكراهية.. خلف العيون الذكية التى تبدو عليها الطيبة تـوجد الوحوش النائمة..

الناس فى الشارع الذين يظهرون وكأنهم سذج بسطاء يمشون فى حالهم.. هم أنفسهم الجلادون الذين كانوا يسـلخون جلـود الضحايا فى معسكرات الاعتقال النازية.. الملايين أمثالهم مشـو خلف هتلر وخربوا العالم وأحرقوا النساء والأطفال بقنـابلهم..

ولو أنك صادفت واحدا منهم فى الشارع لما وجدته يفترق عـن رجل الشارع البسيط فى كل مكان وزمان.

أنا لا أصدق أن ما يحدث لنا غريب علينا وعلى طبائعنا..

لا أصدق أن الظروف يمكن أن تـدفعنا إلـى فعـل ينـاق ضمائرنا..

لا أومن بالحتمية.. فالشحينما يسوقنا إلـى قـدر.. هـو فى الحقيقة يسوقنا إلى نفوسنا.

إن المقدور المحظور حينما يقع.. لا أحد يفـرضه علينـا.. وإنما نحن نختاره..

نحن القدر والمقدور.. وما يحدث لنا هو بصماتنا.. بصـمات نفوسنا..

اقرءوا صفحات الجرائم .. وفكروا من جديد.. وقولوا لـى.. هل أنا على خطأ.. أم على صواب..

زر الطربوش

هذا خطاب من مجهول.. وهو بدون توقيع، ولكن كاتبه يقول إنه كان مريضا فى مصحة ألماظة، بينما كنت أنا طبيبا فى هـذه المصحة منذ سنوات..

ولندع الخطاب يحكى الباقى..

* * *

أنا شاب لا عمر لى .. ضاعت الأيام من حولى لم أتمتع بيوم واحد منها.. وأرجوك لا تتبرم بطول خطابى وتطويه بين أصابعك وتجعل منه كتلة سيريالية.. وتلقى به فى سلة المهملات ودعنـى أتحدث معك على راحتى..

ولدت من أبوين لا يمت أحدهما إلى الآخـر بصـلة.. الأب

عربى مسلم.. والأم فرنسية مسيحية.. ولا أعـرف كيف التقيـا ولا كيف تزوجا.. ولكن الذى أعرفه حق المعرفة أنى جئت إلـى الدنيا لا شكل لى ولا معنى.. شكلى خواجة، وطبعى ابن بلـد.. شعرى أصفر وعيناى زرقاوان وبشرتى بيضاء حمراء.. ولسـانى عربى.. يعنى كشرى.

والكل فى المدرسة ينادوننى بالخواجة.. روح ياخواجة.. تعالى ياخواجة.. ومع هذا أرسب فى اللغة الفرنسية.. وأعيد السنة كل مرة بسبب هذه اللغة.. مسخرة طبعا.. ولكنى لم أكن أكره شيئا فى الدنيا بقدر ما أكره هذا الخواجة ولغته.

كنت أحس أنى غير ذى موضوع .. كزر الطربوش التـركى على رأس سليمان الفرنساوى، مجرد شىء أعجمى غيـر قـابل للاعراب.

ويدب الخلاف بين أبى وأمى وتسافر أمى إلـى بـلادها.. وأبقى وحدى مع أبى .. ثم يتـزوج الأب.. وتـدخل الـزوجة الجديدة البيت لترانى كل يوم أمامها شاهدا على الاثم القـديم الذى ارتكبه الأب بزواجه من أجنبية.. وشاهدا علـى المـاضى الذى تنافسها فيه امرأة شقراء بيضاء جميلة أحمل أنا صورتها وطابع حسنها.

وكان معنى هذا أن أصبح ملطشة.. تصب علـى الـوافدة

الجديدة عفاريت غيرتها وغيظها وغلها.. وتعالى يابن الخواجاية.. غور من وشى يابن الخواجاية.. هات الجزمة يابن الخواجاية.. شيل القبقاب يابن الـ..

وعشت فى البيت مثل خرقة ممزقة من الذل .. والأكل طبعا من بقايا المطبخ. والنوم على سرير من أسرة الخدم.. والمصروف مفيش.. وأولادها حوالى يمرحون فى النعمة ويتمتعون بالحنان والحب والرعاية..

وفى آخر الليل أضع جنبى على السرير الجاف وأسمع تأوهاتها فى الغرفة المجاورة وهى نائمة فى أحضان أبى وأغمض عينى على نار تأكلنى.

وأحاول أن أشغل نفسى بالرسم.. وبالألعاب بدون فائدة..

وأشتغل عاملا فى مصنع دوكو لأكسب قرشين أستعين بهما فى دراستى.. فأقع فريسة المرض.. ويضع طبيب الشركة سماعته على صدرى ويقول إنى مريض بالسل.

وأذهب إلى مصحة ألماظة.. وأنت تعرف ما هى مصحة ألماظة.. وما هو عنبر٧ والرعب والموت.. والدم الذى يطفح من أفواه المرضى كالخراطيم.. ويخطف أرواحهم فى لحظات .. والحياة فى هذا المعزل النائى بلا أمل.. والوجوه المألوفة لعشرات المرضى الذين يخرجون ويعودون المرة بعد المرة..

والليل فى الصحراء حينما يعود الأطباء إلى بيوتهم بعد مرور النوبتجية ويخلو الجو.. ويخرج المرضى من جحورهم ليلعنوا كل شىء ويتبادلون السجائر الملفوفة.. ويكركروا فى الجوزة.. ويشربوا السبرتو.. وحايجرى إيه أكثر من اللى جرى ياعم. قال ضربوا الأعور على عينه قال خسرانة خسرانة..

وأسمع هذه الأحاديث وأمثالها.. فأرتجف وأنا ممدد تحت اللحاف.. وأغرق فى زوبعة من السعال.. ثم أفتح عينى فى الصباح لأجد أن جارى فى الغرفة قد ذهب.. أسعفوه بحقنة كورامين فى الفجر.. ولكنه لفظ أنفاسه..

والزوار يزوروننا فى الصباح ويغسلون أيديهم باالليزول.. وأشياء كثيرة رهيبة.. رهيبة.

وبعد سنة كاملة أخرج من المصحة وقد شفيت ومعى شهادة أنت تعرفها جيدا.. وما أكثر ما كتبتها للمرضى.. وسطرت فيها هذه الكلمات القليلة.. خروج لتحسن الحال وسلبية البصاق.

وأعود الى المأساة.. إلى البيت ليستقبلنى الخوف والذعر .. ولآكل فى طبق وحدى.. وأشرب فى كوب وحدى .. وأعيش فى عزلة وغربة.

وتمر الأيام .. وينمو فى قلبى الحب والحنان وأكتم الحب والحنان.. سنة بعد سنة.. ثم لا أستطيع كتمانه.. فأتقدم من

المرأة التى أحببتها لأطلب يدها فترفض.. ولا أستطيع أن أعيد الكلام الذى قالته لى.. سامحنى.. الدمع يملأ عينى ولا أستطيع منعه.. انتظر قليلا حتى أهدأ.. لا تتركنى.. لا تهرب منى فالكل قد هرب.. ولم يبق لى أحد.. لا أحد سواك أتخيلك الآن بجانبى من وراء ضباب الدموع كما تعودت أن أراك فى المصحة فى مرور كل يوم.

أنا وحيد.. بل أنا الوحدة نفسها..

أنا غريب حتى عن شكلى.. حتى عن وجهى الذى أراه فى المرآة بخصلات شعرى الأصفر وعيونى الزرق وبشرتى الوردية.. وكأنى أشاهد رجلا آخر..

كم أتمنى أن أتخلص من هذا الخواجة.. أنتحر وأموت معه.. أو أموت شهيدا فى حرب فلسطين لأسترد جنسيتى المفقودة.. فلا يقول عنى الناس مرة أخرى الخواجة.

كم أتمنى لو أنى ولدت أسود كالفحم.. ولو أن لى ناسا سودا أتعاطف معهم ويتعاطفون معى.. بدلا من هذه الغربة التى أعيش فيها.

أفكر أحيانا فى السفر إلى أمى.. ولكنى أعود فأشعر أنى سأكون أكثر غرابة هناك.. فليست فى دمائى قطرة واحدة فرنسية..

ألا يبدو هذا أمرا مضحكا.. من أنا .. أنا لا أعـرف.. مـن أنا.. إنى أسألك.

لا تظن أنى،قد شربت كأسا لأكتب هذا الكلام فـأنا لاأشرب الخمر.. ولم يحدث مرة أن وضعت سيجارة فى فمى.. أوتعاطيت مخدرا.

وحياتى بيضاء أكثر بياضا من وجهى.

ولم يحدث أن لمست امرأة طـول عمـرى الـذى يـزيد عن٢٣سنة..

٨٦٧٤ يوما أو ٢٠٨١٧٦ ساعة أو ١٢ مليـونا و ٤٩٠٥٦٠ ثانية.. مرت من عمرى لم ألمس فيها امرأة إلا فى الأحلام.

وهذا هو واقعى.. أنت تضحك..

أنا أيضا أضحك.. وفى قلبى نار موقدة.

لقد تعقدت تماما.. لا جنسية.. لا دين ولا لغـة ولا بيـت.. لا أهل.. لا حب.. حتى جسمى.. البيت الوحيد الذى بقى لـى اتضح أنه خرابة يسكنها عفريت أبيض.

أين أنا فى هذه الدنيا..

ومن أكون..

* * *

قرأت هذا الخطاب وعشت فيه.. وعشت فى المـأساة التـى يرويها البطل.

والمأساة الحقيقية فى نظرى ليست مرضه الصدرى.. فالمرض مجرد عارض طارىء لحقيقة أخرى أعمـق منـه.. والمـرض الصدرى مرض هين يشفى الآن بسرعة.. وله ألف حل وحل.

المأساة الحقيقية هى الغربة التى يعيش فيها البطل.. يفتقد الألفة فى وجهه.. حتى فى ملامحه.

بطل هذه القصة هو.. الغريب.. الذى كتب ألبير كامو قصته.

* * *

إنه مورسو بنفسه. بطل قصة الغريب.. الغريب حتـى علـى أفعاله..

ومرض الصدر ما هو إلا عرض من أعراض هذه الغربة.. إنه سبب آخر للوحدة.. ليأكل المريض فى طبق وحـده.. ويشرب فى كوب وحده.

وأحدث الأبحاث فى مرض السل تقول إن أسبابه نفسية.. وأن الميكروب والعدوى ليسا كافيين لاحداثه.

والميكروب موجود بكثرة ووفرة فى المدن.. فى الأتربة التـى تسفيها الرياح.. وفى كل ركن مظلم رطب.. والعـدوى تتـوزعها

العائلة التى تخالط المريض.. فلماذا يمـرض منهـم واحـد، ولا يمرض الآخر..

إن المرض له بيئة نفسية يترعرع فيها.. ومشكلة هذا البطل هى نفسه.

إنه مرهق بمعركة تدور فى داخله.. والمرض عـرض ثـانوى لهذه المعركة.. ولقد شفى المرض ولكن الراحة الحقيقية لن تتم إلا بإعلان الهدنة الداخلية.. وعقد مصـالحة بيـن الخـواجة والعربى بين البطل وبين نفسه..

والخواجة هو رمز الأم.. رمز الحب والحنان وينبوع الحياة.. ولا يمكن أن يكون رمز الحب رمزا للكراهية..

أن الصراع هنا مهلك وغير مجد

وعلى البطل أن يفهم نفسه.

وحينما يفهم نفسه سوف يتخلص من إحسـاسه بـالغربة.. وسوف يعود إليه إحساس الألفـة والانسـجام والانـدماج فى الحياة.

ونحن حينما نفهم أنفسنا نصبح أقـوى مـن كل ظـروفنا لأنننانستطيع أن نشكل هذه الظروف، ونتوافق معها..

مشروع جريمة

لى صديق كان زميلى أيام الدراسة الثانوية .. ثـم افتـرقنا وألقت بنا الدنيا كل واحد فى طريق ثم عدنا بعد سنوات لنلتقى..

وأصبح من عادته كلما لقينى أن يشكو.. وأصبح من عادتى أن أستمع.. وأنظر إلى وجهه الشاحب وشفتيه المزمومتين دائما كأنما على ثأر بايت..

وشكواه دائما هى .. هى.. لا تتغير.. حتى نبـراته.. حتـى كلماته التى يقولها وهو يطحن أضراسه..

أريد أن أحيا كما يحيا السعداء الأغنياء.. لا تقـل لـى إن معظم الأغنياء غير سعداء.. لا تحاول أن تفلسف لـى الفقـر.. وتشوه لى الغنى.. أنا عارف كلامكم يـاأدباء، أريـد أن أكون

غنيا.. ولست راضيا بالمرة عن نفسى.. وعن وضـعى الحـالى.. عايز فلوس.. فلوس.. عايز يكون عندى عربية وشقة فيها بوتاجاز وثلاجة وبيك أب وريكوردر.. عـايز أسـكن فى عمـارة فيهـا أسانسير.. ويكون عندى على الأقل خمس بدل جديدة.. عـايز أدخل السينما وأقعد بنوار .. مش صالة..

عايز أدخل الكباريهات والبارات.. عايز أعرف إيه المـوجود داخل هذه العلب التى قرأت عنها حتى امتلأت رأسى كلامـا.. عايز أشوف بعينى وأسمع بودنى.. عايز أعيش.. أعيش.

أنا عايش فى حرمان.. اوعى تقوللى ربنا عايز كده.. ربنا مش عايز كده.. ربنا عايزنى أعيش وخلقنى عشان أعيش وأتحـرك وأشعر وألمس وأحس بكل حاجة..

لقد كفرت بالمثل العليـا.. كفـرت بـالأخلاق.. والفضـائل والمبادئ .. كلها كلمات جوفاء لا معنى لها عنـدى.. الحقيقـة الوحيدة التى أعرفها أنى فقير.. ليس لى فدان ترك ولا بقـرة شرك. كل أملاكى هى ماهيتى.. ثلاثون جنيها فقط..

موظف صغير حقير. والدى متوفى ويشاركنى فى هذا المبلـغ أم وثلاثة إخوة.. وكلهم سعداء لأنهم لا يشعرون.. أما أنا فأشعر .. أشعر دائما أنى ميت.. أشعر أنى أتمنى أشياء لا أسـتطيع أن أحصل عليها.. وأشعر فى لحظات أنى على وشك أن أكون قاتلا أو لصا أوسفاحا أو محتالا أو مهرب مخدرات..

فى حلقى مرارة لا تطفئها إلا الخيالات المريضة.

لا تقل لى ابحث عن عمل آخر أو اشتغل بالتجارة..

أين الوقت لكل هذا .. وعملى فى المطار .. وسكنى بشبرا، وخروجى كل يوم فى السابعة صباحا وعودتى فى الخامسة بعد الظهر مرهقا.. متعبا.. لا أصلح لشىء..

لا تقل لى هناك ملايين مثلك وأقل منك وسعداء..

هذا صحيح.. أنا أعلم هذا ولكنهم خلقوا هكذا.. شعورهم هكذا.. ولكنى أنا شىء آخر.. وشعورى شىء آخر.. والمهم هو أنا.. أنا..

ومن عادته أن يكرر أنا.. أنا.. عدة مرات وهو شارد.. ينظر إلى بشفتيه المزمومتين كأنه يحاسبنى.. وكأنى أنا المسئول عن عذابه.. ثم يمضى إلى حاله وأمضى أنا إلى حالى..

ولكن شبحه يظل يلاحقنى.. شفتاه المزمومتان..

ونبراته الحادة.. وكلماته التى ينطقها فى مرارة ويضغطها بين أسنانه مرة.. بعد مرة.. أنا.. أنا..

نعم هنا العذاب كله.. فى هذه الكلمة.. أنا..

ليس عذابه فى ظروفه وفقره وإيراده الصغير.. وإنما عذابه فى نفسه هو..

هناك ملايين الفقراء يعيشون مثله وأقل منه ولايحسون بهذه الاحساسات..

إن عذابه فى عناصر شخصيته التى تتأجج إلى جوار بعضها ويشعل كل واحد منها الآخر..

رغبة حادة بلا عقل.. وشهوة بلا ضابط.. وأحلام بلا وسائل وأمنيات ملحة وإرادة عقيمة.. وإحساسات مرهفة وأفق ضيق.. ولهفة مشبوبة.. وصبر نافد..

وكلها تصطدم فى النهاية وتتحول إلى أسباب للشقاء والحقد.. ولا تتحول إلى عمل وفعالية أبدا.. وهو بعوده النحيل ووجهه الشاحب الهضيم يبدو دائما كمشروع جريمة..

وأنا لا أومن بأن الانسان عبد للظروف وأنه مسير ولا اختيار له إطلاقا..

ظروف الفقر والجهل والمرض والتربية السيئة لا تحتم الفشل فى نظرى.. بل هى أحيانا تؤدى إلى النبوغ والخير والعبقرية.. لأن العامل الحاسم هو دائما الظرف الداخلى.. الظرف النفسى..

وأخطر ظروف الجريمة، هو المجرم نفسه.. وأخطر دوافع الجريمة هو المجرم نفسه.. هى اللحظة الحاسمة التى تصل فيها شخصيته لدرجة الغليان وتفور عناصرها لتفقده الصواب.

هذه العملية الداخلية المستترة فى نفوسنا .. النية..

والاحساس.. والانفعــال.. والتصــور.. والتــردد.. والعــزم.. والاندفاع.. هى مفتاح مصيرنا..

وطالما سألت نفسى.. هل الانسان يستطيع السيطرة على هذه العملية..

هل يستطيع صاحبى أن يحكم غضبه.. ويســوس نفســه.. ويقود ثورته.. ويتحكم فى انفعالاته.. ويتعقل حقده.. وحسده.

أعتقد أنه يستطيع..

أعتقد أن حبل الحرية ممدود فى نفوسنا وأننــا نســتطيع أن نلوذ به دائما.. يداالله تمد لنا هذا الحبل دائما ولكنا لا نراها..

فى أعماقنا طاقة ضوء نستطيع أن نطل منها ونستنجد.

لسنا حجرات مغلقة مظلمة.. تحتوى على الظروف . وتعكس مؤثرات البيئة فقط بدون حرية وبدون تصرف وبدون إرادة..

ولسنا حفراً تتجمع فيها الظروف والفقــر والجهـل والمــرض والأبواب المسدودة..

هناك الحرية دائما فى قاع المشكلة.. وهناك يد الله ورحمته.

لسنا كعيدان القش تحملنا الأمواج .. ويقذف بنا التيار..

وإنما نحن نستطيع أن نسير ضد الريح.. ونسبح ضد التيار.. وضد الظروف غير المواتية أحيانا.

إن الشجرة وهى نوع منحط من أنواع الحياة.. تنمو إلى فوق ضد الجاذبية الأرضية. والعصارة تجرى فيها إلى فوق ضد الجاذبية الأرضية.. وضد قوانين السوائل والضغط الجوى.. وضد الظروف الفيزيقية..

وهى تقف صلبة سامقة فى وجه الريح . لا تنحنى للطبيعة.. وهى شجرة عاجزة عمياء مزروعة فى الأرض مقيدة بجذورها.. فما بال الانسان سيد الكائنات الحية جميعها.. وله ساقان يجرى بهما.. وعينان يبصر بهما.. وعقل يفكر به.. وقلب يحس به.

أنا لا أصدق أبدا خرافة المصير المحتوم.. والظروف التى تضرب على الناس الذلة والمسكنة.. فلا يبقى لهم إلا الشكوى والسباب .. والجريمة..

هناك حل دائما.. هناك مخرج.. طالما أن هناك إيمان .

والمشكلة ليست الظروف..

الظروف تتشابه فى العائلة الواحدة.. ومع هذا يفترق الأخوة على طرق المصير.. واحد ينبغ.. والآخر يرتكب جريمة قتل .. والثالث.. يشحذ.. والرابع يدمن المخدرات.

المشكلة هى الانسان..

الانسان هو الظرف الحاسم.. والعامل المهم فى الحياة..

وحينما تنسد كل الأبواب أمامه يظل هناك باب مفتوح فى داخله.. هو الباب المفتوح على الرحمة الالهية..

وحينما يصرخ من اليأس.. فلأنه أغلق بيده هذا الباب أيضا.. وأعطى ظهره لربه وخالقه.

وأنا أعتقد أن صاحبى يستطيع أن يفعل شيئا.. يستطيع أن يكف عن الشروع فى جريمة ويبدأ فى الشروع فى عمل آخر ناجح..

المهمة الغامضة

ماذا تريد منا الطبيعة؟..

هل كل واحد منا جاء إلى هذه الدنيا بمهمـــة.. وتـــكليف.. ورسالة..عليه أن يؤديها.

هل الميلاد والنزول على هذه الأرض. كان له سبب وغاية..

فى بريدى كل يوم أسئلة حائرة من هذا اللون..

لماذا خلقنا..

لماذا جئنا إلى هذه الدنيا..

ماذا يراد بنا أن نفعل..

هل كان لوجودنا حكمة وسبب وغاية.. أم أننا خلقنا لنمـــوت

والمسألة كلها عبث وسخف كما نقرأ فى كتب فلاسفة العبث وكما نرى فى مسرح اللامعقول؟..

وهل دورنا فقط أن نواجه هذا السخف وبطولتنا أن نتمـرد عليه ونتحداه كما يقول كامـو.. بـطولتنا أن نلعـق جـراحنا ونصرخ.. سنعيش برغم العذاب وبرغم الألم . ونصطنع لأنفسنا وهما وحلما..

وهل تكون حياة تلك التى نبنيها على وهم؟

سؤال خطير وكبير..

والاجابة القاطعة عليه تحتاج إلى الاحاطة الـكاملة بعمليـة الحياة. والاحاطة بالزمن كله.. وما دار فيه من مبدئه فى الماضى السحيق إلى منتهاه فى المستقبل.. فى الآخرة بعد عمر طويل..

لكى تعرف لماذا قامت الحرب.. وما دورها.. لابد أن يـكون لديك علم كامل بما كان يجرى قبل هذه الحرب.. ومـا جـرى أثناءها.. وما جرى بعدها.. أما إذا كنت جنديا بسيطا فى الكتيبة تتلقى أمرا وتنفذه ثم تموت فلن تكون حياتك أكثر من لحـظة فى هذه الحرب.. ولن تستشرف من مكانك رؤية تعرف منها القصة كلها بخباياها وأسرارها.

إن العلم عند القائد .. عند الخالق الذى بعـث بـك إلـى الصفوف الأولى.. وزودك بذخيرة العمر المحدودة مـن سـتين

طلقة فى ستين سنة هى كل عمرك..

الخطة كلها فى رأسه.. أنت بند واحد فى الخطة..

أنت ورقة فى الدوسيه..

سطر..

كلمة..

حرف.. فى كتاب رائع لا نهائى اسمه الدنيا.

ولن يستطيع الحرف أن يدرك الغاية من وجوده إلا إذا أدرك الدور الذى يقوم به فى السطر الذى يشترك فى حروفه.. وإلا إذا أدرك المعنى الذى يدل عليه السطر فى داخل المقال.. والمقال فى داخل الكتاب..

لا بد أن يكون عمرك هو عمر الأبد لتحضر رواية الحياة بكل فصولها وتعرف الحكاية..

أما وأنت حالك حال ممثل فى مسلسلة إذاعية يطلق عليه الرصاص فى الحلقة الأولى ويموت.. فإن طلبه معرفة معنى حياته.. يكون طلبا يتجاوز فيه حدوده.. ويطلب فيه المستحيل..

الجواب اليقين فى هذا السؤال إذن غير ممكن.

وكل ما نستطيع أن نفعله هو أن نحدس.

ونخمن.. ونشطح بذهننا..

وأنا أحاول دائما أن أقرأ الاجابة.. لا من كتـــاب.. ولا مـــن نظرية.. ولا من عقيدة.

ولكني أحاول أن أقرأ الاجابة من التاريخ نفسه.. من حكاية التطور.. من استقراء الطبيعة مباشرة.

أنا أحاول أن أفهم ماذا تريد الحياة بنباتاتها وحيـــواناتها .. وماذا فعلت بهذه المخلوقات على مر العصور..

الحياة لها حكاية..

لقد بدأت بسيطة على شكل ميكروب.. خلية واحـــدة تقـــوم وحدها بكل الوظائف.. تتنفس وتتغذى وتنمو وتتحـــرك بـــدون أجهزة متخصصة..

ثم انقسمت الخلية إلى خليتين.. وكل خلية إلـــى خليتيـــن وخرجت من الخلية الواحدة أعداد لا حصر لها من الخلايا..

ثم بدأت هذه الخلايا تتجمع فى قبائل وقطعان تتحـــرك معـــا وتتعايش معا.. ثم تلاصقت هذه الأعداد.. لتـــؤلف مخلـــوقات مركبة عديدة الخلايا ذات أجهزة متخصصـــة.. أقســـام مـــن خلاياها للتنفس.. وأقسام للتغذى.. وأقسام للحركة.. وأقســـام للافراز.. ونشأ النبات والحيوان المتطور..

وبمضى الأجيال والأحقاب الطويلة.. نشأت فصائل من النبات والحيوان.. كل منها تكيفت مع بيئتهـا.. نبـاتات الصـبار فى الصحارى اتخذت لنفسها أوراقا وسيقانا لتختزن فيها المـاء.. والحيوانات المائية اتخذت لها زعانف لتسـبح.. والحيـوانات البرية اتخذت لها أرجلا لتمشى.. والحيوانات الجوية اتخذت لها أجنحة لتطير.

مرحلة بعد مرحلة.. انتقلت الحياة من الوحدة إلى التعـدد.. ومن البساطة إلى التركيب.. ثم مزيد من التركيب.. وهو تركيب له غاية واضحة.. هو سيادة الحيوان على بيئته.. وسيطرته على ظروفه.. الأجنحة أعطت الـطائر القـدرة علـى ركوب الجـو والزعانف منحت الأسماك القدرة على ركوب البحر.. والأرجـل منحت الدواب القدرة على الدبيب على البر..

وحينما ظهر الانسان استطاع عن طريق عقله أن يقفز قفـزة واسعة.. فهو لم ينتظر مليون سنة لتنمو له أجنحة يـطير بهـا وزعانف يسبح بها.. وإنما اختـرع الأدوات.. اختـرع العـربة والباخرة والطائرة والغواصة والصاروخ.. وهى أعضاء جـديدة حديدية أضافها إلى بنيانه وانطلق يغزو بها الكون.. ولكنه مازال يجرى فى نفس الخط الذى كان يسير فيه الميكروب.. من الوحدة إلى التعدد «من الفرد إلى المجتمـع» ومـن البسـاطة إلـى التركيب.. ومن التركيب إلى مزيد من التـركيب «الاختـراعات

والقوى الآلية التى تزدادتركيبا وتعقيدايوما بعد يوم.. وبالحياة المدنية التى يعيشها والتى يتعقد فيها كل شىء بشكل مطرد .. من الكساء إلى الغذاء إلى الدواء إلى المعاملات والتنظيمات الخ.. الخ..».

ومرة أخرى كان هذا التعقد يهدف إلى نفس الغاية التى هدف إليها الميكروب فى تطوره.. كان يهدف إلى السيطرة على البيئة والسيادة على الظروف.. إلى ركوب الطبيعة واستغلالها وقيادتها بدلا من الخضوع للطبيعة والانقياد لها والتقيد بأغلالها..

كان يهدف إلى القوة والقدرة والمعرفة والوعى والحرية ويكافح فى سبيل الاستمرار والبقاء وهزيمة الموت.. وفى سبيل أن يكون الانسان هو السيد.. هو القدر.

ونحن حينما نبنى سدا عاليا ننظم به ماء النيل.. نحن نسير فى خط التطور.. وفق الغايات العليا المكتوبة فى سفر الحياة.. وهى أن نسود الطبيعة وننظمها ونستغلها. ونخط قدرنا وقسمتنا بأنفسنا..

الحياة إذن فيها غاية..

وهى برغم الموت.. وبرغم الألم والمرض والشيخوخة والشر والعبث.. برغم كل هذا تبدو متماسكة متصلة الحلقات منطلقة

إلى غايتها مكرسة فيها الزمن كله والخليقة كلها جيلا بعد جيل.

هناك مهمة ورسالة وتكليف.. كل منا ينزل إلـى الأرض وفى عنقه هذا التكليف .. أن يضيف طوبة جـديدة إلـى القلعـة الحصينة التى بنتها الحياة لتتحصن فيها وتقود منها التـاريخ وتسوس الكون والطبيعة لصالحها..

ونحن مزودون من أجل هذه المهمة بكافة الأدوات الضرورية. بالعقل والارادة والاصرار، ومزودون بتراث من العلوم والمعارف والخبرات.

نحن الوارثون لكل هذه المعارف لكى نضيف إليها.. ويضيف الذين يأتون بعدنا فى سعى متصل.. لا يعنى فيه الموت شيئا.. ولا يؤدى إلى أى انقطاع.. وكأنما الانسانية كلها.. والحياة كلها مخلوق واحد.

حتى الجماد كان له فى سفر التطور شأن مماثل .. فقد خضع لنفس الناموس.. فمن ذرة الأيدروجين البسيطة المـؤلفة مـن ألكترون واحد وبروتون واحد.. من هـذه الـوحدات الأوليـة. وبدخولها فى علاقات.. نشأت ذرات أكثر تركيبا.. وأكثر تعقيدا.. مرة أخرى.. انتقال من البساطة إلى التركيب ومن الوحدة إلـى التعدد حتى نصل إلى ذرة اليورانيوم وهى ذرة ثقيلـة نشـطة ترسل إشعاعا..

ومن ذرة الكربون القلقة المتعطشة إلى الاتحـاد بـالذرات الأخرى نشأت سلاسل المواد الهيدروكربونية وهى مواد أكثـر تراكبا وأكثر تعقدا، حتى نصل إلى جزىء البروتين الحى فنصل إلى أكثر الوحدات المادية تعقدا وتراكبا وثقلا..

وهناك نظرية فلكية تقول : إن كل شىء نشأ من النور مـن هذه المادة اللطيفة المفرطة فى البساطة.. هذا الاشعاع المؤلف من فتافيت مادية مفرطة فى الصغر.. اسمها الفـوتونات.. هـذه الوحدات التى هى أصغر وحدات الكون وأسرعها حركة وأبسطها تكوينا فتافيت أشعة جاما.. وبيتـا والأشـعة الـكونية.. هـذه الوحدات التقت فى فضاء الكون الشاسع فى مكان ما ونشأت منها تواليف هى التى انتجت فيما بعد الألكترون والبروتون.. ومـن الألكترون والبروتون تكونت ذرة الايدروجين.. ثم سائر الذرات.. الخ.. من البساطة إلى التركيب ثم إلى مزيد من التركيب.

هناك خط سير إذن.

الحياة ليست خبط عشواء.. ولامصادفات ولا عبث..

والكون ليس حركة بلا وجهة.

وإنما حركة ذات وجهة.

المادة تتطور فى خط سير واضح من الوحدة إلى التعـدد.. ومن البساطة إلى التركيب. ومن العجز إلى القدرة.. ومن العماء

إلى الرؤية.. ومن عبودية الغريزة إلى تحرر العقل.. ومن الخضوع للطبيعة إلى السيادة على الطبيعة .. وإخضاع الطبيعة.. ومن الظلام إلى النور ومن الجهل إلى المعرفة.

وقد يعود السائل فيسأل مرة أخرى.

ولماذا تكون هناك حياة من الأصل ، ولماذا يكون هناك أى اتجاه إلى السيادة على الطبيعة.

ألا يكفى أن تكون هناك طبيعة.. ما الداعى لأن تعى الطبيعة نفسها.. وتقود نفسها بنفسها.

والجواب أنها بهذا تحقق الحرية.

بالمعرفة والوعى والقوة والسيادة يكتشف الانسان نفسه ويمتلك كنوز عقله.. ويسيطر على الطبيعة حوله ويحقق حريته ووجوده ويعرف نفسه ويعرف ربه ويبلغ السعادة.. والسعادة لا تبحث لنفسها عن سبب.. فهى دائما غاية ذاتها.

ويعود السائل فيقول إن هذا الكلام يفسر لنا التطور والتاريخ واتجاه الطبيعة فى سيرها.. ولكنه لا يفسر وجودها لماذا وجدت من الأصل..

لماذا يكون هناك امتلاء ولا يكون هناك خلاء، لماذا وجود لا عدم؟

والعقاد رحمه الله له رد على هذه المعضلة.. فهو يقول بأسلوبه المنطقى.. إن العدم معدوم فلا وجه للقول بوجوده أو مناقشة وجوده.

وما دام العدم معدوما فالوجود امتلاء صرف لا نهاية له ولا آخر ولا حدود.. لأن الوجود لا يمكن أن يحده سوى العدم والعدم معدوم..

فالوجود إذن لا مبدأ له ولا منتهى.. ولا يصح السؤال عن متى خلق.. ولم خلق.. فهو أبدى فى الزمان، ولم يكن معدوما ليقال.. متى خلق.. وهى حجج منطقية ترضى العقل.. ولكنها لا تشبع الشعور الذى يعانى الموت.. ويحس بدبيب العدم فى زحف الشيخوخة على الأوصال..

إن السؤال يفرض نفسه برغم لا معقوليته ويلح على الحواس..

ولم كان كل هذا..

وما الحكاية.. وما القصة..

ولم بدأت.. ما دام مصيرها أن تنتهى..

هناك سر..

هناك ثغرة.. فى هذا البناء المنطقى الذى بنته لنا الفلسفة..

إن كل حجج الفلسفة تنهار أمام ضربات الموت وكأنها خيوط عنكبوت.. وكأنها كلام.. مجـرد كلام.. لا يشـفى ولا يشـبع.. ولا يزن شيئا أمام واقع مر أليم شاخص أمام الحواس.

هذا البناء المتهاوى من المنطق لا يمسك نفسه.. وهو يكشف عن قصوره..

هناك سر..

وأنا أعتقد أن هنـاك أسرارا لا سرا واحـدا.. وأن علمنـا لا يغطى كل شىء.. وأن عمرنا المحدود لا يمكن أن يعـطى إلا لمحة محدودة من الحقيقة.. وإننا نحن جنـود الـكتيبة الـتى اسمها « القرن العشرين » موفدون فى مهمة محدودة تنتهى بنهاية عمرنا.. ولا يمكن أن نعرف خبايا الخطة كلها.. فالخطة فى رأس القائد .. الخالق.. ونحن مجـرد بنـد فى الخـطة.. ورقـة فى الدوسيه.. حرف.. ولا يمكن لنا أن نحيط بالحقيقة..

الحقيقة لاتدركها إلا عين تنظر من ربوة الأبدية على الـزمن كله..

كل ما أستطيع معرفته هو أن هذه الحيـاة ليسـت عبثـا ولا سخفا.. وإنما هى نظام محكم له غـايات.. وأننـا نسـير كالجيش.. لنا مسيرة.. ولنا مخطط وأنا لا أعرف المخطط كله.. وإنما أعرف القليل جدا..

ولكن على مرور الزمن اللانهائى.. تكتشف الحياة طـريقها.. وتزداد معرفتها قليلا بقليل.. فيعرف أحفادى ما لم أعرف أنا.. ويتصل مجرى العلم الذى لا يبدو أنه ينقطع أبدا بموت أحــد.. وإنما هو يستمر يحفر طريقه فى الظلمة.

ولا يوهن من عزمى أنى موفد فى هــذا الــطريق فى بعثــة غامضة.. ومهمة غير مفهومة.. فمنتهــى شرفى أنــى فعلــت كل ما أستطيع..

وإذا كان كل ما وصلت إليه أن هدف هــذه الــرحلة هــو التكامل.. تكامل القوة.. وتكامل الحس.. وتكامل السمع.. وتكامل البصر.. وتكامل العقل.. وصولا بذلك إلى معرفة الانسان لنفسه وإدراكه لربه ومن ثم عبادته.. فإن جلال هذه الأهداف وعــظمة هذه الغايات هى مبرر كاف لمشقة الطريق..

وهل بعد الله هدف..؟؟!!

وهل بعد الله سؤال..؟؟!!

المجتمع والفرد

إذا كنت تعد مائدتك بنفس الطريقة التى تعلمتها من والديك وتختار ثيابك فى الحدود التى ترسمها لك الموضة كل عام.. وتنتقى كلامك من لوائح العادة والعرف والتقليد.. ولا تعرف من قاموس اللغة إلا كلمة نعم، فأنا أمام هذه الستائر الكثيفة التى تحجبك سوف أجد مشقة فى الكشف عن حقيقتك كإنسان..

إنى أراك مجرد اسطوانة.. مجرد مرآة مسطحة تعكس الأشياء دون أن تضيف إليها شيئا من مادتها..

أنت لا تملك جديدا فى داخلك.. لا تملك نفسا..

إن المجتمع الصالح ليس مجموعة أصفار، وإنما هو مجموعة أفراد.. وقدر صغير من الفردية ضرورى ليفترق به الانسان عن الدابة.. وليفترق به المجتمع عن القطيع.

إن مليون إنسان يقولون نعــم.. دائمــا.. فى كل منــاسبة.. لا يعول على رأيهم .. لأنهم لا يختلفون عن مليون قالب طــوب يجاوبون على الصوت بترديد صداه..

ليس من صالح المجتمع إذن أن يذوب فيه أفراده.. فيفقدون فردياتهم ويتحولون إلى تشكيلات آلية من النمل.

وإنما يجب أن يحتفظ كل فرد بنطاق من الحرية حوله يتنفس فيه..

هذه حقيقة أولية..

ولكن هذه الفردية إلى أي مدى يحق لها أن تتنفس؟ وهــل من حق فرد أن يملأ رئتيه بالهواء على حساب ملايين يختنقون حوله؟!!

إن هذا ينتهى بنا إلى مشكلة كبيرة من مشاكل الفكر.. يسهر على حلها مئات العقول الكبيرة..

* * *

إلى أى مدى تذهب حرية الفرد.. وإلى أى مــدى تنتهــى مصلحته لتبدأ مصلحة المجتمع..

إن الفرد يستمد عاداته وتفكيره ومقاييسه الخلقية.. ويستمد طعامه أيضا من المجتمع الذى يعيش فيه.. ولكنه ليس مجــرد

وعاء يحتوى على المجتمع.. وإنما هو فرن تنصهر فيه العناصر الاجتماعية وتتحول إلى سبيكة جديدة..

إنه يتفاعل مع ظروفه ويحاول التأثير فيها كما تـؤثر فيـه.. ويحاول ترتيبها فى أسلوب ونتائج تجر بعضها بعضـا كعـربات القطار، ثم يضع إرادته مكان القاطرة ويجرها جهـد طـاقته فى طريق ممتد نحو الأفق الذى يتصوره...

ولكن الظروف الاجتماعية ليست جامدة.. إنها تتحـرك هـى الأخرى ولها قانون يربطها.. واتجاه تتطور نحوه.. إنها كالريح، وعلى الفرد أن يبسط شراعه، ويتلقاها، ويندفع بقوتها نحو غايته إذا أراد أن يصل إلى شىء.. فهو لا يستطيع أن يسبح وحده فى التيار..

إن الفرد والمجتمع قوتان غير متكافئتين.

المجتمع قوة كبيرة لأنها التقاء إرادات الأفراد كلهم بـإرادة التاريخ والتطور.

والفرد قوة صغيرة.. قارب يتأرجح على الطوفان..

إن كولمبس اكتشف أمريكا.

ومع هذا فأمريكا كانت فى طريقها إلى الاكتشاف سواء أراد كولمبس أم لم يرد.. فالمراكب الشراعية كانت تقـطع البحـار السبع فى محاولة يائسة لكشف طريق تجارى قصير إلى الهنـد

ومن وراء ذلك كانت تحتشد مصالح اجتماعية ملحة تجعل هـذا الكشف ضرورة لا بد منها..

وظهور أسماء ماجلان وفاسكودى جاما مع كولمبس فى وقـت واحد يدل على أن كولمبس وحده ليس هو الذى كشف أمريكا.

وإنما الحاجة الاجتماعية التى ظلت تتراكم حتى نفخـت فى شراع البحار البرتغالى وحملته إلى الأرض الجديدة..

إن البطل ليس خرافة فردية..

وإنما هو التقاء إرادة فرد بإرادة مجتمع فى لحظة مـوفقة.. كما تلتقى يد عارية بقفاز..

إنه سباح ماهر ركب الشلال.. فقطع ألف ميل فى ثانية.. ويدا أمامها كصانع معجزات.. والحقيقة أن المعجزة ليست فى يديه، ولا فى ساقيه.. ولكنها فى الشلال الذى ركبه..

* * *

لقد كان الملك لويس السادس عشر فى فرنسا ومـن حـوله الأمراء.. ورجال الكنيسة.. يملكون وحـدهم جميـع الغـابات والحقول والمـراعى والبحيـرات وسـدس الأراضى الصـالحة للزراعة.. وألوفا من العبيد وعمال السخرة..

وكان الفلاح الفرنسى يزرع القمح ولا يأكله.. والشعب يعيش

فى مجاعة مستمرة وفاقة وبطالة.. وينظر فى غضب إلــى مليــكه السعيد الذى يتسلى بإشعال الحروب وفرض الضرائب.. وخطف العذارى من بيوتهن..

وكان بين الطرفين بركان يدمدم تحت الأرض.. يبحث عــن فجوة يقذف منها حممه..

كانت الثورة الفرنسية تحلق فوق الرءوس..

كانت فى كتب روسو ومونتيسكيو ودالمبير وديدرو.. وكانت فى ضمير رجل الشارع..

وحينما حدثت الثورة وأطاحت بالملك.. وقلبت الحــكم إلــى جمهورية.. وتوالى على قيادتها ميرابو وماراوربسبير.. كان الذى يشاهد التاريخ من بعيد.. يشاهد هؤلاء الأفراد الأبــطال وقــد ركبوا الشلال.. وأصبح الشلال هو الذى يقودهم ويجــرفهم فى تياره.

كان يشاهد المجتمع يتحرك.. والقواد جالسين على طوفانه..

* * *

إن ارادة المجموع هى التى تملأ الفرد بالقوة حينما تنصب فيه.. وهى التى تعطيه القدرة التى يغير بها التاريخ. إنها كاليد فى القفاز..

ولايعنى هذا أن الفرد كمية لا تـزيد ولا تنقص فى حسـاب الحوادث.. فالتاريخ فى مد وجزر. وليس شلالا دائم التدفق.. وفى الفترة الطويلة التى يهدأ فيها ماء البحـر .. وتنـام الـريح.. ويستقر السلام.. يبدأ الفرد يعيش .. ويتسـع أمـامه الأفـق. ويمتلىء بالاحتمالات.. ويزداد دوره فى تخطيط الحوادث التـى تتراكم فيما بعد لتصبح أساسا للتطور..

إن المجتمع صندوق كبير مقفل.. والفرد ثقب صغير.. ولكنه ثقب يدخل منه الضوء.. والمجتمع فى حاجة إلى ضـوء وهـواء لأنه ليس دائما بحالة جيدة ليس دائما على صواب فهو يتقـدم كما يتدهور .. ويتماسك كما يتفكك .. والفرد الحر الواعى هـو وحده الذى يستطيع أن يـكتشف قـوانين التحلل والفسـاد فى مجتمعه.. ويستطيع أن يلقى بحبل النجاة فى الوقت المناسب.

فليس من صالح المجتمع إذن أن يذيب أفراده فى داخله وأن يحولهم إلى أصفار وإلى تشكيلات من النمل.. وإنما عليـه أن يحفظ لكل فرد نطاقا من الحرية يتنفس فيه.. وبهـذا يـكتسب مرونة وقوة.. وقدرة على البقاء.. ويصبح كالخزف الثمين الـذى لا يقبل الكسر..

فهرس

صدر للمؤلف

٤٥- لماذا رفضت الماركسية
٤٦- نقطة الغليان
٤٧- عصر القرود
٤٨- القرآن كائن حَىّ
٤٩- أكذوبة اليسار الإسلامى
٥٠- نار تحت الرماد
٥١- المسيخ الدجال
٥٢- أناشيد الإثم والبراءة
٥٣- جهنم الصغرى
٥٤- من أمريكا إلى الشاطئ الآخر
٥٥- أيها السادة اخلعوا الأقنعة
٥٦- الإسلام ... ما هو ؟
٥٧- هل هو عصر الجنون ؟
٥٨- ويبدأ العد التنازلى
٥٩ - حقيقة البهائية
٦٠- السؤال الحائر
٦١- سقوط اليسار

* مجموعة المؤلفات الكاملة *

قصص مصطفى محمود	صدرت فى بيروت عام ١٩٧٢
روايات مصطفى محمود	صدرت فى بيروت عام ١٩٧٢
مسرحيات مصطفى محمود	صدرت فى بيروت عام ١٩٧٢
رحلات مصطفى محمود	صدرت فى بيروت عام ١٩٧٢

حازت رواية « رجل تحت الصفر » على جائزة الدولة لعام ١٩٧٠